
نجيب محفوظ
صدى النسيان

صدى النسيان

تأليف
نجيب محفوظ



صدى النسيان

نجيب محفوظ

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: سامح عرفة

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٥٩ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

نجيب محفوظ

بقلم محمد جبريل

وضعتُ عن نجيب محفوظ كتابًا هو «نجيب محفوظ، صداقة جيلَين»، حاولتُ فيه أن أُحيط بعالَم محفوظ الأدبي والشخصي، من خلال صداقة قريبة وقراءات لكلِّ ما كتبه، ولكلِّ ما كُتب عنه. كما أفردتُ فصلًا عن الروائي الكبير في كتابي «آباء الستينيات».

والمفروض — في هذه المساحة — أن أتناول ما لم يسبق لي تناوله في شخصية محفوظ وأدبه، وهو أمر قد يفرض التكرار، لكن النهر العظيم المسمَّى نجيب محفوظ يحمل الكثير من الخصوبة والتجدُّد.

وبالتحديد، فسأُحاول أن أعرض في هذه الكلمات لبعض ما أُثير حول سيرة نجيب محفوظ الشخصية والفنية والفكرية والسياسية.

كان نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا أصغر إخوته الستة. تفصل بينه وبين من يكبره مباشرة، عشر سنوات، ومن ثم فقد كانت علاقته بهم — والتعبير له — تجمع بين الأُخوة والأُبوة والأُمومة! ولعلِّي أُذكِّرك بكمال عبد الجواد و«وضعه» المتميِّز في البيت بين إخوته ياسين وفهمي وخديجة وعائشة.

وكان والد نجيب موظَّفًا صغيرًا، ثم عمل فيما بعدُ بالتجارة.

وقد بدأ نجيب محفوظ حياته الوظيفية في ١١ نوفمبر ١٩٣٤م. ظلَّ إلى ١٩٣٩م في سكرتارية جامعة فؤاد الأول، ثم نُقل إلى وزارة الأوقاف، وبقي بها إلى ١٩٥٤م عندما

اختير مديرًا للرقابة الفنية بمصلحة الفنون، فمديرًا لمؤسسة دعم السينما، فمستشارًا لوزير الثقافة لشئون السينما، حتى أُحيل إلى المعاش في ١٩٧٢م، فأصبح — من يومها — كاتبًا متفرِّغًا في مؤسسة الأهرام.

تقلَّب محفوظ في وظائف مختلفة، لكنه ظلَّ على ولائه للوظيفة، واحترامه لها، ومراعاة طقوسها بدءًا بالحضور في الموعد المحدَّد، والانصراف في الموعد المحدَّد، وانتهاءً بالاعتناء بزرِّ الجاكتة، ووضع الطربوش فوق الرأس.

نتذكَّر الفنان نفسه — مع اختلافات واضحة — في وصفه للموظَّف القديم فؤاد أبو كبير؛ فهو «مثال حَسَن للموظف؛ مثال في اتزانه؛ فهو محترم حقًّا، ودءوب على العمل؛ فهو حمار شغل، ولم تزايله هذه الصفة يومًا منذ التحق بالخدمة بالكفاءة وهو ابن عشرين. وقد انطبع بالروتين حتى تغلغل في روحه، وسرى في سلوكه. حتى السلوك غير الرسمي؛ فهو يرجع إلى بيته كل يوم حوالي الثالثة، يتغدَّى وينام حتى الخامسة. ثم يمضي إلى القهوة حوالي السادسة، فيدخِّن النارجيلة، ويتكلَّم في الكادر والسياسة، ثم يلعب النرد، وأخيرًا يعود إلى بيته عند الحادية عشرة، فيتعشَّى عشاءً خفيفًا، ويصلِّي، ثم ينام» (كلمة في السر، مجموعة بيت سيئ السمعة). وتُعد الفترة من ١٩٥٠م إلى ١٩٥٤م من أخصب الفترات — فنيًّا — بالنسبة إلى الفنان؛ فقد عمل آنذاك مديرًا لمؤسَّسة القرض الحسن التابعة لوزارة الأوقاف؛ حيث التقى — من خلال — عمله بالكثير من الشخصيات التي تباينت في ظروفها الاجتماعية والمادية. ومع أنه من أسرة متوسطة، فقد عرف معنى الحاجة في عمله بوزارة الأوقاف، وهي تثمين الأشياء التي يرهنها أصحابها لقاء قرض حسن.

تزوَّج في ١٩٥٤م من السيدة عطية الله. كان صديقًا لأسرتها، ممَّا أتاح لكلٍّ منهما أن يتعرَّف إلى الآخر. وعندما طلب الاقتران بها، وافقت أسرتها التي كانت تعرفه جيدًا، وتمَّ عقد القران في أيام قليلة. وأثمر زواجهما أم كلثوم وفاطمة.

نجيب محفوظ قاهري في معظم إبداعاته. إذا استثنينا توظيفه للتاريخ الفرعوني، فإن القاهرة هي حدود هذه الإبداعات؛ بدءًا بأولى قصصه القصيرة إلى أحدث قصصه القصيرة، مرورًا بما يبلغ ٣٥ رواية، وحوالي ثلاثمائة قصة قصيرة. وكما يقول، فقد عاش حياة القاهرة، وكان — على حد تعبيره — شوارعيًّا بكل معنى الكلمة.

والحق أني لا أستطيع أن أنسى الكثير من شخصيات محفوظ. كم التقيت في الطريق بأحمد عبد الجواد وياسين وفهمي وكمال وكامل رؤبة لاظ ونفيسة وحسن أبو الروس

وحسنين كامل علي ومحجوب عبد الدايم وإحسان شحاتة وسعيد مهران وصابر الرحيمي وعمر الحمزاوي وعيسى الدباغ وأحمد عاكف وعباس الحلو وحميدة وفرج إبراهيم، وعشرات غيرهم أجاد الفنان رسم ملامحهم الظاهرة وتحليل نفسياتهم، في أعماله!

مع ذلك، فأنت تستطيع التعرُّف إلى أبعاد الحياة المصرية في قراءتك لأعمال نجيب محفوظ؛ التاريخ والجغرافيا والمعتقدات والعادات والتقاليد والتطوُّرات السياسية. لا تقتصر مكوِّنات الصورة البانورامية على روايات مرحلة الواقعية الطبيعية، منذ «خان الخليلي» إلى الثلاثية، لكنك تجد تفصيلات مهمةً من الصورة في «اللص والكلاب» و«السمان والخريف» و«الطريق» و«الشحاذ»، إلى «قشتمر» آخر أعمال محفوظ الروائية. إنه ليس بلزاك مصر، ولا جبرتي مصر الحديثة؛ إنه نجيب محفوظ الذي لا يكتفي بالتصوير — شأن المدرسة الواقعية الطبيعية — ولا بمجرَّد التسجيل التاريخي أو الاجتماعي، شأن المؤرخين، لكننا نجد في مجموع أعماله نظرةً كلية، نظرةً شاملة، فلسفة حياة، أشرت إليها — قبلًا — في كتابي «نجيب محفوظ، صداقة جيلين» (عندما أُحيل الفنان إلى المعاش، قال في حوار صحفي: أُحس أن المعاش استمرار لحياتي العملية، بعد أن أتمتَّع بميزتَين؛ أولاهما الحرية، وثانيتهما التوحُّد للفن (أسماء لامعة، ٢٦)).

اعتبر نجيب محفوظ الفن حياةً لا مهنة؛ «فحينما تعتبره مهنةً لا تستطيع إلا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة. أمَّا أنا، فقد حصرت اهتمامي بالإنتاج نفسه، وليس بما وراء الإنتاج. وكنت أكتب وأكتب، لا على أمل أن ألفت النظر إلى كتاباتي ذات يوم، بل كنت أكتب وأنا معتقد أني سأظل على هذا الحال دائمًا» (نجيب محفوظ، صداقة جيلَين، ٦٤). كان يكتب الرواية بيقين أن «جميع الفنون مجزية، إلا الرواية فهي أقرب إلى الرهبنة، ويتناسب مجهودها مع جزائها تناسبًا عكسيًّا (المصدر السابق، ٦٤).

يقول: «عندما بدأت الكتابة، كنت أعلم أنني أكتب أسلوبًا أقرأ نعيه بقلم فرجينيا وولف، ولكن التجرِبة التي كنت أقدِّمها، كانت في هذا الأسلوب. ولقد تبيَّنت بعد ذلك أنه إذا كانت لي أصالة في هذا الأسلوب، فهي في الاختيار فقط. لقد اخترت هذا الأسلوب الواقعي، وكانت هذه جرأة. وربما جاءت نتيجة تفكير مني. ففي هذا الوقت كانت فرجينيا وولف تهاجم الأسلوب الواقعي، وتدعو للأسلوب النفسي. والمعروف أن أوروبا كانت مكتظةً بالواقعية لحد الاختناق. أمَّا أنا فكنت متلهِّفًا على الأسلوب الواقعي الذي كتبت به. كان هو أحدث الأساليب، وأشدها إغراءً وتناسبًا مع تجرِبتي وشخصي وزمني، وأحسست بأنني لو كتبت بالأسلوب الحديث سأصبح مجرَّد مقلِّد» (الجمهورية، ٢٨ / ١٠ / ١٩٦٠م).

ومع وفرة الكتابات التي عُنيت بالترجمة لنجيب محفوظ، فلعل هذه الكلمات ليحيى حقي هي الأشد صدقًا في التعبير عن أبعاد الشخصية المتفرِّدة: «ليس بيننا أديب يعرف أصول فنه مثل نجيب. من أجل هذا الفن وحده دخل كلية الآداب، ودرس الفلسفة وعلم الجمال، واطَّلع اطلاع الفاهم الفاحص الواعي على غُرَر الأدب العالمي، بل دخل معهد الموسيقا الشرقية، وأجلس «القانون» على ركبتَيه، ولبس «الكستبان» في سبابتَيه. وأشهد أني لم أحدِّثه في مشكلة فنية إلا هداني إلى الصواب، وإلى المراجع، وتتبَّع لي المسألة من جذور أمِّ أمِّها. وأجل صفة فيه أن عمله أكثر بكثير جدًّا من كلامه. ولو كتب كما يتكلَّم، لكان أيضًا إمامًا لا يبارى في الأدب الفكاهي. ولو شاء أن يضع على الورق ما يقوله شفاهًا لأصدقائه وجلسائه في ندواته، لكان إمام هذا الجيل في النقد أيضًا. ولعلك قرأت تحليله البارع، وتفسيره الذكي، لمسرحية «لعبة النهاية» (عطر الأحباب، مؤلفات يحيى حقي، هيئة الكتاب، ص٦٦. وكان كاتب هذه السطور قد أجرى حوارًا مع محفوظ، حلَّل فيه مسرحية بيكيت «لعبة النهاية»، ونُشر في الملحق الأدبي والفني لجريدة «المساء» في ١٩٦٣م).

ولعلي أُضيف إلى ذلك قول شكري عياد: إن نجيب محفوظ أديب دارس، لا يتكئ على الموهبة وحدها، ولا يتنقَّل بين فنون الأدب إلا عن إدراك عميق لخصائص كل فن» (تجارب في الأدب والنقد، ٢٢٨). وقد ظلَّ نجيب محفوظ يعمل في صمت أكثر من عشر سنوات، ويضع أُسس الرواية المصرية دون أن يلتفت أحد كثيرًا إلى خطورة ما كان يفعله (الثورة والأدب، لويس عوض، ١٣٧).

وظني أن نجيب محفوظ خدع الكثيرين ممن وجدوا فيه روائيًّا فقط. الرواية هي الإبداع الأهم للرجل، لكنه مارس كل ألوان الكتابة بدءًا بالمقال الفلسفي، فالترجمة، فالقصة القصيرة، والرواية، والسيناريو السينمائي، والمسرحية، والخاطرة. طال توقُّفه أمام بعض تلك الألوان، مثلما حدث في المقال الفلسفي والسيناريو، واكتفى — أحيانًا — ببضع محاولات، مثلما فعل في مسرحياته ذات الفصل الواحد، والتي كانت انعكاسًا لرغبته في إثارة حوار حول بواعث هزيمة يونيو ١٩٦٧م. ولعلي أختلف مع الفنان في قوله (١٩٨٠م) إنه لم يحاول أن يكتب سيرته الذاتية؛ ذلك لأنه كان قد أعلن — قبلًا — أنه كمال عبد الجواد في الثلاثية. وكان الإعداد الأول لـ «المرايا» أن تكون سيرةً ذاتية للفنان، وتراجم لأبطال رواياته.

ومحفوظ يحرص على أن تكون الفصحى لغة السرد والحوار، لإيمانه بأن «اللغة العامية من جملة الأمراض التي يعاني منها الشعب، والتي سيتخلَّص منها حتمًا حين يرتقي.

وأنا أعتبر العامية من عيوب مجتمعنا، مثل الجهل والفقر والمرض تمامًا» (المجلة، ديسمبر ١٩٦٢م)، بل إنه يرى في العامية «حركةً رجعية، والعربية حركةً تقدُّمية. اللغة العامية انحصار وتضييق، وانطواء على الذات، لا يناسب العصر الحديث الذي ينزع للتوسُّع والتكتُّل والانتشار الإنساني» (صباح الخير، ١٦ / ٢ / ١٩٥٦).

القول بأن النقاد أهملوا نجيب محفوظ فترةً طويلة، فلم ينتبهوا إليه إلا بعد روايته التاسعة «بداية ونهاية» (أدباء معاصرون، رجاء النقاش، كتاب الهلال، ٢٤١)، وهو ما أكَّده الفنان في أكثر من حوار صحفي، كقوله: «حياتي بدأت بإهمال طويل، وانتهت باهتمام كبير (أسماء لامعة، مفيد فوزي، مكتبة مدبولي، ٣٣). ثم قوله فيما بعد: «ضاع وقت جيلنا في تحطيم الحواجز.»

هذا القول، فيه الكثير من الصحة، ولكن من الصعب — وربما من الظلم أيضًا — أن نُغفل دور الناقدَين الكبيرَين سيد قطب وأنور المعداوي، وأقلام نقدية أخرى، داخل مصر وخارجها. وأذكر تمنِّي سيد قطب — عند صدور «كفاح طيبة» — أنْ لو كان الأمر في يده، لطبع آلاف النسخ من هذه الرواية؛ لتكون في يد كل شاب، ولتدخل كل البيوت. ثم أكَّد الناقد أن كاتب الرواية يستحق التكريم والإجلال (الرسالة، ٣ / ١٠ / ١٩٤٤م). وتحدَّث سيد قطب عن «خان الخليلي» فأكَّد أنها «تستحق أن يُفرد لها صفة خاصة في سِجل القصة المصرية الحديثة» (سيد قطب: كتب وشخصيات، مطبعة الرسالة، ١٧١)، «وهي تستحق هذه الصفة؛ لأنها تسجِّل خطوةً حاسمة في طريقنا إلى أدب قومي واضح السمات، متميِّز المعالم، ذي روح مصرية خالصة من تأثير الشوائب الأجنبية — مع انتفاعه بها — نستطيع أن نقدِّمه مع قوميته الخاصة على المائدة العالمية، فلا يندغم فيها، ولا يفقد طابعه وعنوانه، في الوقت الذي يؤدِّي فيه رسالته الإنسانية، ويحمل الطابع الإنساني العام، ويساير نظائره في الآداب الأخرى» (المصدر السابق، ١٧١). أمَّا أنور المعداوي، فقد كتب عن رواية محفوظ «بداية ونهاية» إنها دليل عملي على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فني كامل. وأضاف الكاتب: لقد أتى عليَّ وقت ظننت فيه أن نجيب محفوظ قد بلغ غايته في «زقاق المدق»، وأنه لن يخطو بعد ذلك خطوةً أخرى إلى الأمام. أقول غايته هو، لا غاية الفن؛ لأن «زقاق المدق» كانت تمثِّل في الظنون أقصى الخطوات الفنية بالنسبة إلى إمكانياته القصصية. ولهذا خُيِّل إليَّ أن مواهب نجيب قد تبلورت هنا، وأخذت طابعها النهائي، وتوقَّفت عند شوطها الأخير، وممَّا أيَّد هذا الظن أن المستوى الفني في «السراب»

— وقد جاءت بعد «زقاق المدق» — كان خطوةً واقفة في حدود مجاله المألوف، ولم تكن الخطوة الزاحفة إلى الأمام. كان ذلك بالأمس. أمَّا اليوم، فلا أجد بُدًّا من القول بأن «بداية ونهاية» قد غيَّرت رأيي في إمكانيات نجيب، وجعلتني أعتقد أنه قد بلغ الغاية التي كنت أرجوه لها، غايته هو غاية الفن حين كانت الغايتان مطلبًا عسير المنال. إنني أصف هذا الأثر القصصي الجديد لهذا القصاص الشاب، بأنه عمل فني كامل. هذا الوصف، أو هذا الحكم، مردُّه إلى أن أعماله الفنية السابقة كانت تفتقر إليها على الرغم من المزايا المختلفة التي تحتشد بين يدَي صاحبها، وتحدِّد مكانه في الطليعة من كُتاب الرواية» (نماذج فنية من الأدب والنقد: أنور المعداوي، لجنة النشر للجامعيين، ص١٨٦).

وبالطبع، فإن الالتفات إلى أعمال نجيب محفوظ، والاهتمام بها، لم يقتصر على المعداوي وقطب. ثمة قطاع مهم من المثقفين والقراء العاديين، وجدوا في أعماله نقلةً للرواية العربية. وأذكر أني كتبت من قبل: نجيب محفوظ كنز اكتشفناه نحن، ولم ينبِّهنا إليه الأجانب. اكتشَفَه من قرأ له، وأُعجِب به، ووجد فيه مثلًا أعلى. والقول بأن نجيب «عاش يكتب خمسين سنةً دون أن يكتشف أي ناقد في مصر أنه عملاق»، هذا القول مشكلة الكاتب الشخصية، مشكلة أنه قرأ محفوظ كما قرأ الآخرين، فلم تتوضَّح له الفوارق بين حجم الفنان نجيب محفوظ وأحجام الآخرين. أمَّا نحن الذين قرأنا نجيب محفوظ جيدًا، واستوعبناه جيدًا، وتفهَّمناه جيدًا، وعرفنا مدى خطورته وتأثيره وجدواه، واتخذناه مثلًا أعلى، ربما حتى في سلوكياتنا الشخصية، فإننا نزعم باكتشاف كنز نجيب محفوظ منذ «خان الخليلي» التي يمكن أن نؤرِّخ بصدورها بدء تطوير فن الرواية في بلادنا.

حقيقة أن النقد لم يتناول أعمال محفوظ بالكم الذي تناول به تلك الأعمال عقب صدور «زقاق المدق» في طبعتها الشعبية. أذكر حفاوة أستاذتنا سهير القلماوي بالزقاق في حديث إذاعي، وإعجاب المثقفين بها، إلى حد إقدام الصديق الناقد المخضرم توفيق حنا على وضع دراسة نقدية عن الرواية، فاق عدد صفحاتها صفحات الرواية نفسها، وإن لم يُتَح لتلك الدراسة أن تصدر بعد.

لكن التفات النقد لم يكن خيرًا كله، وبالذات في أواسط الخمسينيات، قبل أن يصبح محفوظ هذه المؤسسة القومية، كما وصفه لويس عوض فيما بعد. فقد شُنَّت عليه حرب قاسية لأسباب أيديولوجية محضة، قدَّرت بعض الأقلام النقدية أن أدبه يعبِّر عن نقيضها. ولولا عناد الثيران الذي وصف به محفوظ نفسه، في مقابل التجاهل النقدي، ثم في مقابل التسلُّط النقدي، لأسكت قلمه، خاصةً وأن السينما كانت قد وهبته كلمة السر التي يستطيع

بها أن يغترف ما يشاء من مغارتها السحرية. كان قد أصبح كاتبًا للسيناريو مرموقًا. وأذكِّرك بالخبر الذي نشرته مجلة أسبوعية — آنذاك — عن التقاء الفنانة هدى سلطان بالقاص يوسف جوهر وكاتب السيناريو نجيب محفوظ، لمراجعة سيناريو فيلمها القادم، «دنيا».

كان نجيب محفوظ يُلح على أنه يكتب للقارئ المصري، لكنه — فيما أتصوَّر — كان يُدرك أنه أديب مصري لكل العالم. أذكر ملامحه المتأثِّرة وهو يحدِّثني عن الحفاوة النقدية — والشعبية — بأعماله في امتداد الوطن العربي: هل تصدِّق أنه لم يترجَم لي عمل واحد حتى الآن؟ وألف التواضع في أحاديثه وتصرُّفاته، لكن طموحاته — المشروعة — كانت بلا آفاق.

عانى نجيب محفوظ — عقب حملة إعلامية أخيرة لابتزازه بتصريحات ملوَّنة وذات ضجيج — اتهامات غير مسئولة بأنه رجل كل العصور، بمعنى أنه هادن كل السلطات، في كل العهود، فلم ينله رذاذ من الأذى الشديد الذي لحق بالكثير من المبدعين والمفكرين.

والحق أن أعمال كاتب ما لم تواجه سذاجة التأويلات، بل سوء نيتها، مثلما واجهت أعمال نجيب محفوظ. كلٌّ يحاول تفسيرها بما يرضي اتجاهه، بصرف النظر عن ذلك الاتجاه، ومدى اقترابه من الأعمال، أو ابتعاده عنها.

لقد أسقط الفنان من أحداث التاريخ — في رواياته الفرعونية — على أحداث معاصرة، وعبَّر — في روايات مرحلة الواقعية الطبيعية — عن أحداث معاصرة. لم تخذله موهبته ولا ثقافته المتفوِّقة في تقديم صياغة فنية ناضجة، وأكثر تفهُّمًا لمتطلَّبات التكنيك الروائي، قياسًا إلى إبداعات سابقة ومعاصرة.

أذكر قوله لي: الأدب له حِيَل لا حصر لها؛ فهو فن ماكر، وليس وضعه وضع الفكر المباشر. أنت باعتبارك مفكِّرًا مباشرًا تقول كلامًا واضحًا، ولكن الأديب لديه الرمز، ولديه أمور أخرى يستطيع بواسطتها أن يتحايل، فيعبِّر عن كلمته بشيء من اليسر لا يتاح عادةً للمفكِّر. أمَّا العقبة الأولى فهي فقدان الحرية.

بل إن «أولاد حارتنا» — التي كاد يدفع حياته مقابلًا لإبداعها — يجد يحيى حقي أن الفنان «حقَّق بها ما عجز عنه غيره من الكُتاب. حقَّق الأمل الذي كنا نتطلَّع إليه، وهو ارتفاع، الأدب عندنا إلى النظرة الشاملة والتفسير الفلسفي الموحَّد للبشرية جمعاء، ووضع تاريخ الإنسانية كله في بوتقة واحدة» (عطر الأحباب، مؤلفات يحيى حقي، هيئة الكتاب).

ولعل موقف محفوظ الفكري والاجتماعي والسياسي في آنٍ، يتبدَّى في أعقاب نكسة ١٩٦٧م مباشرة. كان حرصه على وضوح عمله الفني هو الأرضية التي تقف عليها أعمال تلك الفترة، وأن يكون الصدق جسر علاقته بقُرائه، حتى لو عاد بفن القصة العربية — كما قال لي — إلى أحد أشكاله الأولى، المقامة، أو يكتب خُطبًا ووعظًا، أو موضوعات إنشائيةً تغيب عنها لغة الفن.

لذلك، فإن بعض النقاد يعتبر السياسة هي المحور الرئيسي في حياة محفوظ، وفي فكره وفنه، وأنها المؤثِّر الأول في تكوينه العقلي، والدافع المحرِّك لتوجهاته الأدبية (البيان الكويتية، أكتوبر، ١٩٨٩م). ويقول الفنان: «إن العواطف والانفعالات السياسية من المصادر الأساسية لتجرِبتي الفنية. بل تستطيع أن تقول إن السياسة والعقيدة والجنس كانت المحاور الثلاثة التي دار حولها إنتاجي، والسياسة هي المحور الجوهري بين هذه المحاور الثلاثة، فلم تخلُ رواية من رواياتي من السياسة.»

وقد أدان محفوظ فساد العهد الملكي في «القاهرة الجديدة» و«بداية ونهاية»، وانتقد سلبيات الثورة — في ظل حكم عبد الناصر — في «ميرامار» و«ثرثرة فوق النيل» و«حب تحت المطر» … إلخ.

ويحدِّد محفوظ «خمَّارة القط الأسود» بأنها «أول عمل عبثي بعد النكسة مباشرة» (الأهرام، ١٢ / ١٠ / ١٩٨٤م). ثم تتالت الأعمال العابثة شكلًا، الواقعية مضمونًا، تنتقد الفترة، وتُعَريها، وتُدينها، في فنية عالية، ورفض للتقريرية والمباشرة والجهارة.

ولا يخلو من دلالة قول الفنان حين سُئل عن قصته «الخوف»: «إن لديَّ استعدادًا لأن أكتب قصةً من هذا النوع خدمةً لرأي أحترمه، ولظروف سياسية أُحب أن أمارس دوري فيها، حتى لو قُدِّر لهذه القصة أن تموت فور انتهاء المناسبة التي كتبت عنها، ومن أجلها» (الآداب، يوليو، ١٩٧٣م). وكما يقول، فقد كان نقده لفترة ما بعد الهزيمة «نقد سلبيات، وليس رفضًا لثورة ١٩٥٢م؛ فهو نقد كاتب منتمٍ للثورة، لا رافض لها.»

ومع ذلك فإن أعمالًا كثيرةً له مُنعت من النشر بالأهرام؛ الحب تحت المطر، الجريمة، الكرنك، قلب الليل. وعندما حاول نشر إحداها في غير الأهرام، تدخَّلت الرقابة.

نجيب محفوظ هو التعبير الأصدق، ربما من كتابات المؤرِّخين، عن صورة المجتمع المصري في مراحل متعاقبة من حياته. والمتأمِّل لآرائه التي تضمَّنتها أعماله، أو آرائه التي نقلتها وسائل الإعلام، يلحظ أنه كان دومًا إلى جانب اليقين الديني والعلم والعدالة الاجتماعية، فضلًا عن أنه كانت له آراؤه التي نختلف فيها معه — وأزعم أني كنت أول

المخالفين لتلك الآراء في كتابي «نجيب محفوظ، صداقة جيلَين»، وهي تتصل بقضية الصراع العربي الصهيوني — وإن ظلَّ للرجل في نفسي مكانة الرائد، والأستاذ، والوالد، والقيمة الكبيرة.

منذ أوائل الستينيات، كنت أحرص على زيارة أستاذنا نجيب محفوظ في كل الأماكن التي أستطيع فيها أن أُناقشه. أسأله، وأتلقَّى الإجابة. أتعرَّف إلى جوانب من سيرة حياته، وقراءاته، والأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم، وفلسفته في إبداعاته، وقصة القصة فيما يكتب، وكانت محصلة ذلك كله كتابات شبه يومية كنت أنشرها في «المساء».

وسألني صديقي الدكتور محمد فتوح الأستاذ بدار العلوم — ذات يوم — مداعبًا: كلما قلَّبت صحف الستينيات في دار الكتب، طالعتني كتاباتك عن نجيب محفوظ، فهل كنت مراسل جريدتك عند نجيب محفوظ؟

والحق أني كنت مراسلًا للإعجاب بإبداعات محفوظ، منذ قرأت له «خان الخليلي»، ثم حرصت على قراءة كل ما كتب حتى مقالاته الفلسفية في المجلة الجديدة وقصصه القصيرة في ثقافة أحمد أمين ورسالة الزيات، كنت أخلو إليها في دار الكتب بالساعات، أحاول تلمُّس بدايات عميد الرواية العربية.

وحين عدت من رحلة طويلة خارج مصر، كان قد مضى على نجيب محفوظ في رحلة المعاش حوالي ١٥ عامًا، ولم يعد من الميسور، أن تتواصل جلساتنا، أُفيد من آرائه وتوجيهاته وروحه الطيبة الذكية. ظروفه الصحية فرضت عليه أن يخصِّص موعدًا محدودًا ومحدَّدًا لاستقبال الأصدقاء والإعلاميين والدارسين في مصر وخارجها.

قرَّرت أن أحترم ظروف الرجل، فلا أُثقل عليه، وإن تكرَّرت قراءاتي لأعماله. لقد صدر له من الروايات ما يفوق — كمًّا وكيفًا — ما صدر لأي أديب عربي في امتداد الأجيال الأدبية، وما زلت أُفيد من المخزون المعرفي الذي كان ثمار أعوام متصلة من النقاش الموضوعي بين أستاذ متعمِّق الثقافة وتلميذ يحاول الاستزادة من المعرفة.

وأصررت على قراري حين علَت أصوات الذين نسبوا أنفسهم إلى نجيب محفوظ بالبنوة والوراثة وابتزاز الرجل — لا يحضرني تعبير آخر — بتصريحات ربما قالها من قبيل الفضفضة في جلسات تصوَّر أنها بين أصدقاء.

لنجيب محفوظ آراؤه المُعلنة، سواء في إبداعاته، أو في حواراته مع وسائل الإعلام، وفي كتاباته التي تنشرها له الأهرام منذ سنوات، فلا جديد في تلك الآراء بما يستدعي إظهار المفاجأة، ورفع عصا التخويف، واتهام الرجل بما يسيء إلى وطنيته.

هل أذكِّرك ببعض تلك الآراء، في مراحل متعاقبة من التاريخ الشخصي والإبداعي لمحفوظ؟

يقول: «لقد كتبتُ كل القصص في ظل عهود، كان التفاؤل فيها يُعتبر نوعًا من التخدير والرضا بالواقع، ونهايات قصصي الحزينة ليس كل ما فيها هو الحزن. إن فيها حثًّا على الثورة، على أوضاع المجتمع وتغيير نظمه. قد ينتحر البطل، ولكن لماذا انتحر؟» ويقول: «الأرض الثابتة التي أستطيع أن أُسمِّيها عقيدةً عندي، هي الأفكار الاشتراكية، ما عدا ذلك فإنه يندرج تحت عبارة البحث المستمر.» ويقول: «طالما هناك إنسان يستغل الآخرين، فالفساد والشر قائمان. الذي يستغل شرير، والمستغل بائس، والعلاقات بينهما حقد وكراهية، وما بين الشر والبؤس لا تطلُّعَ إلى الله. إنني أطلب الحياة، حياة إنسانية، علاقات الناس تقوم على الحب والتعاون حتى يستطيعوا أن يتجهوا إلى الله. أنا لست فيلسوفًا، ولكني أحلم. وهذه أحلامي. أتطلَّع إلى لون من ألوان الحياة تستطيع أن تُطلِق عليه «الصوفية الاشتراكية»، حياة هي التطلُّع إلى الله، والإنسان لا يستطيع أن يعرفه إلا إذا ارتفعت حياته إلى مستوًى نظيف خالٍ من المفاسد والشرور» ... إلخ.

وإذا كان البعض قد أخذ على محفوظ أنه بدَّل آراءه، فإن الباعث كما قلت هو أسلوب الابتزاز الذي عومل به الرجل. حاولوا أن يستنطقوه بما شغلته عنه ظروفه الصحية والعمرية، وابتعاده الفعلي عن واقعنا السياسي والاجتماعي، اللهم إلا المشاركة في جلساتٍ للمسامرة بين أصدقاء حقيقيين — مثل مجموعة الحرافيش — تؤنس وحدته بدعابات وذكريات مشتركة، بينما حاول البعض ممن فرض صداقته على الرجل، أن يمتص الثمرة التي وهبتنا كل ما لديها، متناسيًا أن نجيب محفوظ قال ما لديه، وقدَّم لنا إبداعات تعتز بها ثقافتنا العربية المعاصرة.

المؤسف أن تلك المحاولات لم تنظر إلى أبعد من قدمَيها، ولا أدركت مدى الإساءة التي تحيق ليس بشخص نجيب محفوظ وحده، وإنما بثقافتنا العربية إطلاقًا.

قد يرى البعض أن ما نُسب إلى نجيب محفوظ من آراء كان يجب مناقشته، والرد عليه. ومع تناسي هؤلاء لظروف الرجل — وهي ظروف واضحة — فقد كان من حق نجيب محفوظ أن يقتصر النقاش على آرائه، فلا يمتد إلى شخصه، بحيث لا نُلغي — ببساطة مذهلة — تاريخًا طويلًا من الفن الجميل، والثقافة الرفيعة، والريادة الإبداعية التي يدين لها بالفضل كل مبدعي الأجيال التالية.

وإلى يوم فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل — كان الرجل يعتقد أن دوره، أو دور جيله، لا يطمح إلى هذه الذروة. أذكر قوله لي: إن ما كتبناه، ونكتبه، تعبير عن همومنا وهموم جيلنا، ولا ينبغي أن يجاوز جيلنا حياته لحظةً واحدة.

قلت: سؤال سخيف .. لكن الإجابة تفرض السؤال أحيانًا: متى يشعر جيل نجيب محفوظ أنه قد بدأ يجاوز حياته؟

قال: عندما يستنفد أغراضه.

– متى؟

– عندما يؤدِّي رسالته.

– وما هي؟

– ماذا أقول لك يا صديقي؟ .. عدنا إلى طلب الاستقلال، فضلًا عن الوصول إلى الحياة العصرية، ممثلةً في الصناعة والعلم (المساء، ١٠ / ٧ / ١٩٧٠م).

بدأ نجيب محفوظ حياته الإبداعية كاتبًا للقصة القصيرة. نشر أعماله الأولى في «الرسالة» و«الثقافة»، بالإضافة إلى مقالاته الفلسفية في «المجلة الجديدة». ثم تفرَّغ محفوظ للرواية، فكتب رواياته التي وظَّف فيها التاريخ الفرعوني. ثم كتب «خان الخليلي»، أولى روايات مرحلة الواقعية الطبيعية — وليست «القاهرة الجديدة» كما يظن الكثيرون — واقتصرت إبداعاته لسنوات على الرواية. وكانت الثلاثية هي آخر ما كتب في تلك المرحلة، قبل — أو متزامنةً مع — ثورة يوليو. وطال صمته خمسة أعوام، تفرَّغ في أثنائها لكتابة السيناريو السينمائي. ثم كتب «أولاد حارتنا» بدايةً لمرحلة طرحت العديد من القضايا المجتمعية والسياسية والميتافيزيقية. عاد — بعد نشرها مسلسلةً في «الأهرام» — إلى كتابة القصة القصيرة، فتقاسمت إبداعَه مع الرواية، حتى كاد يُخلص — في الأعوام الأخيرة — لفن القصة القصيرة، ربما لأنه — كما قال في أحد حواراته — يعد نفسه في محطة سيدي جابر، للنزول في محطة الإسكندرية، فهو يُحجِم عن البدء في مشروعات تستلزم جهدًا ووقتًا.

ومنذ «دنيا الله» — أولى المجموعات بعد «أولاد حارتنا» — حتى هذه المجموعة التي بين يدَيك، كتب نجيب محفوظ الكثير من الإبداعات القصصية، ضمنها مجموعات: دنيا الله، بيت السمعة، خمَّارة القط الأسود، تحت المظلة، حكاية بلا بداية ولا نهاية، شهر العسل، الحب تحت المطر، الجريمة، الحب فوق هضبة الهرم، الشيطان يعظ، التنظيم السري، صباح الورد، الفجر الكاذب، القرار الأخير.

أمَّا هذه المجموعة، فسأظل أعتز بأني أنا الذي اخترت عنوانها «صدى النسيان» حين طلب أستاذنا سعيد السحار — حادي العديد من الأجيال الأدبية، بدءًا بجيل لجنة النشر للجامعيين — أن أقدِّم لهذه المجموعة، بحبي المؤكَّد لشخصية محفوظ، ولإبداعه.

اخترت اسم واحدة من قصص المجموعة عنوانًا لها، ووافق نجيب محفوظ على الاختيار.

وكانت هذه هي المرة الثانية التي يوافق فيها أستاذ كل الأجيال على اسم مجموعة له ليس من اختياره. أشرت — من قبل — إلى موافقته على اقتراح سعيد السحار بأن يحذف كلمة «تحت» من مجموعته «تحت المظلة». فلما أعلنت إشفاقي على اسم القصة القصيرة التي كانت قد لقيت صدًى بين القُراء والنقاد، يفوق ما لاقته روايات كثيرة، لأدباء آخرين، وافق نجيب محفوظ على تسمية «تحت المظلة»، وصدرت بها المجموعة فعلًا.

يبقى أن هذه الكلمات لا تستهدف التقديم، ولا النقد، ولا حتى الإشارة إلى ما تضمُّه المجموعة من قصص؛ فأنا أدرى الناس بموضعي قياسًا إلى موضع عميد الرواية العربية.

حسبي أن أحاول التعبير عن حب طالب لأستاذ، أفاد منه، ليس على المستوى الفني فقط، وإنما على المستوى الإنساني، وسلوكيات الحياة اليومية.

حديقة الورد

حدث ذلك في زمن مضى. وممَّا يُذكر أن شيخ الحارة حكاه لي ونحن جلوس في حديقة الورد؛ فقد عُثر على حمزة قنديل بعد اختفاءٍ طويل وهو جثةٌ هامدةٌ في الخلاء.

وُجد مطعونًا في عنقه بآلة حادة، مخضَّب الجلباب والعباءة بالدم المتجمِّد، عِمامته مطروحة على مبعدة يسيرة من الجثة، أمَّا ساعته ونقوده فلم تُمس؛ ممَّا يقطع بأن الجريمة لم تُرتكب من أجل السرقة. وتولَّت الجهات الرسمية الفحص والتحقيق، وانفجر الخبر في الحارة، وذاع بسرعة النار في نشارة الخشب.

وترامى الصوت من بيته، وجاوبَته الجارات بالمشاركة الواجبة، وتبادل الناس النظرات، وساد جوٌّ من التوتُّر والرهبة، ولم تخلُ بعض السرائر من ارتياح خفي، وأيضًا ممَّا يشبه الشعور بالذنب، وأفصح عن شيء من ذلك عم دكروري بيَّاع اللبن حين همس لإمام الزاوية: القتل أكبر ممَّا يتوقَّعه أحد، رغم عناده وثقل دمه!

فقال الإمام: يفعل الله ما يشاء.

وسألَت النيابة عن أعدائه، فكشف السؤال عن جو متحفِّظ غامض. أرملته قالت: إنها لا تعرف شيئًا عن علاقاته في الخارج. ولم يشهد أحد بوجود عداوة بين القتيل وبين أحدٍ من أهل حارته، بل لم يُدلِ أحد بشهادة نافعة. ونظر المأمور إلى شيخ الحارة متسائلًا فقال: كل ما لاحظته أنه لم يكن له أصدقاء!

ولمَّا سُئل عن أسباب ذلك قال: كانوا يستثقلون دمه ولم أهتمَّ بمعرفة السبب.

ودلَّت التحريات على أن الخلاء كان طريق ذهابه إلى عمله في التربيعة وعودته منه. ولم يكن يصحبه أحد في ذهابه أو إيابه. وأمام السؤال التقليدي عمَّا إذا كانوا يشكُّون في أحد أجابوا بالنفي القاطع، ولم يكن أحد يصدِّق أحدًا، ولكن هكذا جرت الأمور. ولكن لماذا لم يكن لحمزة قنديل صديق في الحارة؟ وهو ما يرجِّح بأنها كانت تضمر له العداء؟

قال شيخ الحارة: إنه كان ممن سبقوا إلى شيء من التعليم، فكان يجلس في المقهى يحدِّث الناس عن عجائب الدنيا التي يطَّلع عليها في الصحف، فيثير الدهشة ويجذب الانتباه. هكذا صار قعر كل مجلس يكون فيه، واحتلَّ مركزًا لا يراه الناس لائقًا إلا برجال الحكومة أو الفُتوات، فحنقوا عليه وتابعوه بقلوب مليئة بالسخط والحسد. وبلغ الأمر نهايته من التوتُّر عندما تكلَّم ذات يوم عن القرافة كلامًا عُدَّ خارجًا عن حدود العقل، وذلك عندما قال في أثناء حديث له: انظروا إلى القرافة. إنها تقع في أجمل موضع في حيِّنا!

وتساءل الناس عمَّا يريد فقال: تصوَّروا شمالها حيًّا سكنيًّا، وجنوبها حديقة!

وغضب الناس غضبًا لم يغضبوه من قبل، وانهالوا عليه لومًا وتعنيفًا، وذكَّروه بكرامة الأموات وواجب الولاء لهم. وكان بيومي زلط على رأس الهائجين فحذَّره من العودة إلى حديث القرافة، وصرخ قائلًا: نحن نعيش في بيوتنا سنين معدودة، ونلبث في قبورنا إلى يوم يبعثون!

وتساءل قنديل: والناس أليس من حقِّهم أيضًا؟

ولكن زلط قاطعه هائجًا: حرمة الأموات من حرمة الدين!

بذلك أفتى زلط الذي لم يعرف كلمةً واحدةً عن الدين. ولم تكَد المعركة تهدأ بعض الشيء حتى حمل شيخ الحارة في ذلك الوقت قرارًا من المحافظة يُنذر بإزالة القرافة بعد مهلة معيَّنة، داعيًا الناس لإقامة مقابر جديدة في عمق الخلاء. لم يكن ثمة علاقة بين كلام قنديل والقرار، ولكن البعض ظن — وبعض الظن إثم — والأكثرية قالت: إن قنديل أهون من أن يؤثِّر في الحكومة، ولكنه شؤم على أي حال. ورغم ذلك حمَّله الجميع تبعة ما حدث. وهو من ناحيته لم يُخفِ سروره بالقرار. فضاعف من غيظ الناس وحنقهم، وتجمَّعوا أمام شيخ الحارة بين صياح الرجال وعويل النسوة، وطالبوه بأن يُبلغ الحكام بأن قرار الحكومة باطل وحرام وضد الدين وضد كرامة الأموات، وقال لهم شيخ الحارة إنه لا يقلُّ عنهم غَيرةً على كرامة الأموات، ولكنهم سيُنقلون من مكان إلى مكان مع المحافظة الكاملة على الحرمة والكرامة، فقالوا في إصرار: إن هذا يعني أن اللعنة ستحيق بالحارة ومن فيها. وصارحهم الرجل بأن قرار الحكومة نهائي، وأن الأَولى بهم أن يتأهَّبوا للتنفيذ. وانصرف عنهم وزلط يقول بصوت كالنهيق: ما سمعنا عن شيء مثل ذلك منذ عهد الكفار!

واختلط السخط على الحكومة بالسخط على قنديل فصار سخطًا واحدًا. ورجع بيومي زلط من سهرةٍ ذات ليلة مخترقًا طريق المقابر، وعند السبيل الصغير برز له هيكل عظمي متلفِّعًا بكفن، فتسمَّر زلط وطار ما في دماغه من دماغه.

قال الهيكل: الويل لمن ينسى موتاه أو يتهاون في أثمن ما يملك وهو القبر.

ورجع زلط إلى الحارة وقد امتلأ بهمسات الموت، والحق أنه لم يخفَ على أحد أنه قاتل قنديل. لم يبُح بسرِّه أحد خوفًا وانحيازًا. وقيل: إن تلك الحقيقة ترامت إلى مأمور القسم، ولكنه كان أيضًا ضد نقل القرافة المدفون فيها أجداده، وقُيِّدت القضية ضد مجهول، وراح دم قنديل هدرًا.

ختم شيخ الحارة حديثه معي بنغمة آسفة ونحن جلوس في حديقة الورد التي كانت ذات يوم قرافة حيِّنا العتيق.

صدى النسيان

كانوا يحلفون باليوم الذي شهد مولده الجديد، والساعة التي وقع فيها تغيُّره وانقلابه الحاسمان، غادر عنبر بيته عند الأصيل، وصار مزهوًّا في عباءته السوداء، مرسلًا من خطاه الثقيلة نُذُر الرهبة والخوف. وفيما هو يمر أمام كشك الحنفية العمومية، توقَّف كأن مجهولًا اعترضه أو صدَّه. أحنى رأسه دقيقتَين، ثم رفعها فطالع الناس بوجه جديد. انحلَّت عُقد وجهه، ولانت عضلات صدغَيه، وتلاشى بريق العزم من عينَيه فحلَّ محلَّه هدوء حائر، وراح يُقلِّب ناظرَيه في الناس والأشياء كأنه يبحث عن شيء أو لا يدري شيئًا. وتحرَّك في الحارة تحرُّكًا عشوائيًّا في هدوء وذهول لم يُرَ معهما من قبل.

وكان الناس يحيُّونه فلا يرد، ويُلقون إليه أهازيج الملَق فلا يتأثَّر. حدث شيء خطير ولا شك، ولكن ما هو؟ وتجمَّع الناس بعيدًا عنه وهم على أشد حال من القلق والتوقُّع. وجاء فيمن جاء إمام الزاوية وشيخ الحارة. وتساءل شيخ الحارة: ماذا يجري في حارتنا؟

فأجاب الإمام: أمر الله ولكل أمر حكمة.

فقالت امرأة أحد أعوان عنبر: إنه عفريت النسيان، إن مسَّ أحدًا نسي الناس ونسي نفسه. تمنَّى الناس أن تصدق، وأن يذوب عنبر في النسيان إلى الأبد. وراقبوه بحذر وهو يَهيم هادئًا ذاهلًا حتى صار هدوءه مألوفًا. وانخفضت حرارة الخوف عامة، واطمأن من كان يتوقَّع أذًى. وتجوَّل عنبر في أنحاء الحي كلما حلا له ذلك، وكثيرًا ما ضلَّ سبيله فيُرجعه أحد أعوانه وهو لا يعرفه. وذاع في كل مكان أن عنبر مسَّه عِفريت النسيان، وأن شخصًا جديدًا طيبًا حلَّ فيه مكان الآخر. واعتُبر ذلك من عجائب النوادر، كما عُدَّ مِنةً من الملك الوهاب. وعاد إلى الحارة بعض الذين طردهم سخطه منها في عهد بطشه وقوته، وحتى المطية التي هربت من شغبه وسوء خلقه رجعت إلى حارتها، فرجع معها السرور والطرب. وتردَّدت

من جديد الأنغام العذبة التي طال حنين الناس إليها. ورأى عنبر خصومه السابقين فلم يعرف أحدًا منهم، وحتى المطية لم توقظ وعيه أو تحرِّك ساكنه. ارتاحت الحارة جميعًا إلا أعوانه الذين تنكَّر لهم الزمان، وجعل شيخ الحارة يحذِّرهم قائلًا: الزمان تغيَّر ولن أسمح بأي انحراف.

وكانوا أضعف من أن يتحدَّوا أهل الحارة، فتعلَّقت آمالهم بأن يعود صاحبهم إلى وعيه فجأةً كما فقده فجأة، أو يقع ما ليس في الحسبان.

وعقب صلاة الفجر قال إمام الزاوية لشيخ الحارة: لأول مرة يتردَّد عنبر على الزاوية.

فتساءل شيخ الحارة بدهشة: أهو ميل مفاجئ للهداية؟

– لعله.

فقال الشيخ مُشجِّعًا: املأ قلبه بالدين كي لا يجد فراغًا للشرِّ إذا استردَّ وعيه يومًا.

وعرف أن المرأة التي اكتشفت داءه تسعى لدى أهل العلم بالنجوم والسحر والعفاريت ليشفوه من المس. وأقلق ذلك الناس وطالبوها بأن تكفَّ عن سعيها، وأنذروها بالشر إذا لم ترجع، وبدا أنهم يرفضون العودة للهوان مرةً أخرى. وعاد الإمام يقول لشيخ الحارة: أتباع الرجل السابقون يتبعونه في الهداية.

فقال الشيخ راضيًا: أخبار طيبة حقًّا!

– لم يُسمع عن شيء مثل هذا منذ زمن السلف الصالح.

وبشَّر شيخ الحارة الناس بذلك، فرحَّب بالأخبار من رحَّب، وأعلن الناس بأنهم على تمام الاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضد أي تسلُّط.

ولم يتغيَّر مظهر عنبر في جملته، وذهب وجاء كرجل من عباد الله الطيبين. لم يُؤذِ أحدًا بفعل أو قول، حتى بنظرة. وآمن كثيرون بأنه لن يعود إلى أصله أبدًا. وظلَّ أناس على حذر يتشاورون، ثم توارى عن أعين الناس هو وأعوانه فترةً غير قصيرة، حتى تضاربت الأقوال وثارت الخواطر.

وفي يوم السوق وقف الإمام يؤذِّن لصلاة الظهر، فمضى الناس في هدوء نحو الزاوية، وإذا برجل يصيح: انظروا.

فاتجهت الأبصار إلى حيث يشير، فرأوا عنبر ورجاله قادمين. تغيَّر المنظر جملةً وتفصيلًا. تقدَّمهم عنبر وتبعوه كالزمان الأول في الجلابيب والعمائم قابضين على نبابيتهم. وارتدَّ وجه عنبر إلى الصورة القديمة بالنظرة الصارمة، والعُقَد البارزة، والعضلات المشدودة. هل رجعنا إلى أيام الطغيان والإتاوات والسيطرة؟

وساد الصمت حتى لم يعُد يُسمع إلا وقع أقدامهم الثقيلة. وعند الزاوية وقفوا، وضرب عنبر الأرض بنبوته، وصاح بصوت كالرعد: «الله أكبر.» فردَّد الرجال وراءه في هتاف يزلزل القلوب: «الله أكبر»!

الهتاف

ذات صباح رجع أبو عبده إلى حارته. عرفه كثيرون رغم طلاء الأُبهة، رغم العباءة والعِمامة والعصا والمركوب. يا للغرابة يا أبا عبده! ماذا أرجعك؟ عاش في الركن الذي كان يقيم فيه بين أسرته. وتلفَّت حوله في حيرة. واتجه نحو دكان شيخ الحارة الذي كان يراقبه بامتعاض، وحيَّاه وسأله عن أهله.

وسأله شيخ الحارة بخشونة: ما معنى هذه العودة؟

فقال أبو عبده الذي لم يكن يتوقَّع استقبالًا أفضل: جئت لزيارة الأهل.

فقال الرجل بغلظة: مات من مات، ورحل من رحل هربًا من كلام الناس.

ثم بعد فترة صمت مشحون باللوم: وأنت أدرى بالحكاية وأصلها.

فقال أبو عبده بلهجة لم تخلُ من تحدٍّ: ها أنا أعود يا شيخ حارتنا، وسوف تراني سيدًا يعيش بين السادة.

فقال شيخ الحارة بضيق: اختر لنفسك ما يحلو، أمَّا أنا فلا يهمُّني إلا الأمن العام.

وسرى الخبر في الحارة مثيرًا أكبر قدر من الاشمئزاز. وبأكبر سرعة ممكنة راحت خرابة تتحوَّل إلى سراي؛ لينزل به ذلك الرجل الذي غادر الحارة إلى أطراف الحي، وجمع ثروةً ضخمةً من أحط السبل وأحملها للعار، حتى صار مضغةً للأفواه، ومرَّغ اسم حارته في التراب.

وسأل إمام الزاوية شيخ الحارة: ألم يجِد في الدنيا الواسعة مكانًا لمسكنه بعيدًا عن الحارة؟!

فقال شيخ الحارة: إنه يؤمن بأن نقوده تستطيع أن تفعل المستحيل.

وتلهَّف أبو عبده مع إعداد السراي ليبدأ ممارسة سيادته. ولكن طوال مدة العمل لم يُعنَ أحد بالنظر إليه. كان يشعر بالاحتقار كظله، والكراهية مع أنفاسه.

وتساءل في توجُّس: تُرى هل أقيم لنفسي سجنًا وأنا لا أدري؟

ونصحه شيخ الحارة قائلًا: إنه مشروع فاشل.

فقال بإصرار: بل سوف تلمس نجاحه وتُنوِّه مع الآخرين بأعمالي الخيرية.

فضحك شيخ الحارة رغمًا عنه، فقال أبو عبده: وسأستعين بك في مشروعي الخيري.

فرمقه بريبة فقال: أنت تعرف متبولي الأعمى، كنت مقترضًا منه خمسة قروش حين غادرت الحارة، فانصحه بأن يذكِّرني بها.

فأدرك شيخ الحارة مقصده. لم يتحمَّس ولم يرفض. وقال لإمام الزاوية: إذا أراد أن يكفِّر عن منكره فليكفِّر.

فقال الإمام: إن الأعمال بالنيات، وهو ذو نية سوداء دائمًا.

غير أن سعي شيخ الحارة باء بالإخفاق وقال لـ «أبو عبده»: متبولي يرفض المطالبة بدَينه القديم.

وانزعج أبو عبده، لكنه لم ييئس. صمَّم على أن يجعل من واقعة رد الدين لمتبولي حادثًا يسيل له لعاب الفقراء في الحارة، فيكسب جبهتهم بضربة واحدة.

وانتظر صابرًا كظيمًا يوم السوق، وارتدى فاخر الثياب إيمانًا منه بولع أهل حارته بالمظاهر. وذهب بقدمَين ثابتتَين يشق طريقه في الزحام إلى حيث يقرفص عم متبولي أمام مقطفه. قال بصوت جهير: أُحيِّي صديق العهد القديم.

فرفع متبولي إليه عينَيه الضعيفتَين، وتحرَّكت شفتاه دون أن يصدر عنهما صوت. وانتبه إليه أناس فتابعوا ما سيحدث باهتمام، ودون أن يفارق الفتور وجوههم. وهمس إمام الزاوية في أذن شيخ الحارة: أدعو الله أن يمر اليوم على خير.

أمَّا أبو عبده فقال: لكَ دَين في عُنقي وجئتك الآن لأسدِّده.

وأخرج من عبِّه رزمة أوراق مالية لا تُرى في الحارة إلا كلَّ حين ومين، ووضعها بين يدَي الرجل لضيق مقطفه. وساد صمت ثقيل، وتركَّزت على الرزمة الأبصار، حتى همس شيخ الحارة في أُذن الإمام: اذكر هذه اللحظة التعسة؛ فقد تكون بدء تاريخ طويل من الفساد في حارتنا الطيبة.

وابتسم أبو عبده في إغراء. ولمَّا ترامى الزمن دون حركة، تحوَّلت الابتسامة إلى توسُّل، ولكن متبولي أزاح النقود بمقطفه نحو صاحبها، وصاح بصوت سمعه الجميع: خُذ نقودك يا قذر!

عند ذاك هتف الجميع بصوت واحد: الله أكبر! ولْيحيَ الجدعان.

الطاحونة

كانوا ثلاثةً قيل إنهم خرجوا إلى الدنيا في يومٍ واحد. وحديث الأعمار يبوح بأسراره في حارتنا عند الحوار بين الأمهات والجارات في شتى المناسبات. ولعبوا معًا عند مشارف الميدان حتى بلغوا السادسة، عند ذاك حُجزت البنت لتصبح خفيةً وراء الجدران. واستمرَّ الصديقان في اللعب والتذكُّر. أمَّا رزق فيتذكَّرها كلما احتاجوا إلى ثالث في لعبة من الألعاب، وأمَّا عبده فحتمًا منذ تلك السن المبكِّرة كان يشعر بها حبيبةً للقلب على نحو ما. ومنذ تلك السن المبكِّرة أيضًا أدرك أن عليه أن ينتظر عشر سنوات قبل أن يحقِّق أمله المشروع.

وكان عبده من الذين يملكون، أمَّا رزق فممن لا يملكون. وتزاملا في الكتَّاب كما تزاملا في اللعب. وانقطع رزق عن التعليم بحكم فقره، وواصله عبده حتى نال الابتدائية. ومنذ ذاك الزمن البعيد ورزق يتشكَّل في وجدان عبده مثالًا فائقًا في القوة والجرأة والمهارة؛ فاحترمه وأُعجِب به وتبعه رغم فارق الغنى والفقر.

ولمَّا مات والد عبده حلَّ الفتى محل أبيه في مطحن البن الذي ورثه. وكان الأب قد درَّبه، كما أن العُمَّال القدامى أخلصوا له أيَّما إخلاص، ولكنه سرعان ما ضمَّ صديقه رزق إلى المطحن كمعاون له، وكان كل ما حصَّله كل منهما من التعليم كافيًا له في عمله. وتجلَّت ألمعيَّة رزق في متابعة العمل من شرائه كـ «بُنٍّ» أخضر، إلى تحميصه وطحنه وتعبئته وتوزيعه. وقال لأسرته مفسِّرًا قراره بتعيين رزق: أنا لا أجد الطمأنينة إلا معه.

ذلك حق. لم يتخلَّ عن خدمته قط؛ يدفع أي أذى الصبية، يسارع إلى نجدته كلما احتاج إلى نجدة، يسعفه بالرأي والمشورة. ولمَّا ضمَّه إلى المحل قال له: كن في العمل ما كنته في الحارة، عينَي وأذنَي ويدَي.

وفي وقت قصير استحق أن يُلقَّب بالوكيل. إنه الرقيب بين العُمَّال، الدائب على رعاية الطاحونة، وأنشط من قام بتوزيع البن في الدكاكين والمقاهي. يا له من طاقة لا تخمد.

وأصبح هو لا يدري كبيرةً أو صغيرةً من محله إلا عن طريقه. بالمقارنة أصبح هو لا شيء والآخر كل شيء.

وكان ارتياحه لذلك أضعاف ضيقه به؛ لِمَا طُبع عليه من كسل وحب الحياة اليسيرة والميل إلى الاستمتاع بالسهر كل ليلة في المقهى أو الغرزة. وكان العملاء يقصدون رزق لعقد الصفقات وكأنه مالك كل شيء. ولاحظ خال عبده ذلك وهو في غايةٍ من الاستياء، ولكن الشاب قال له: بكلمة واحدة مني يتغيَّر كل شيء. أريد أن تجري الأمور على ما تجري عليه. وأنا يا خالي أحب المال ولا أحب العمل، ورزق أمين، وهو هدية ربنا إليَّ.

ومضت الأمور في طريقها المرسوم حتى قال عبده لرزق يومًا: آن لي أن أفكِّر في الزواج قبل أن يسرقنا الوقت.

ولم يبدُ على رزق أنه فوجئ، وسأله: هل فاتحتَ أحدًا في الموضوع؟

– أنت أول من أُفاتحه فيما يُهمُّني.

– أحسنت؛ فالطريق المعتاد إلى الزواج هو أردأ الطرق، فدعني أتحرَّى بأسلوبي الخاص والله يهدينا سواء السبيل.

هكذا سلَّمه شئون قلبه ضمن اختصاصاته، ولم يكُن رأى ظريفة طيلة السنين إلا مرات معدودة، ولكنه لم يُحب من جنس النساء سواها، غير أنه قال كالمعترض: أسرتها طيبة، وحسنة السمعة، ولا حاجة بنا إلى التحريات.

– هذا كلام الناس الطيبين، ولكننا لن نخسر بالسؤال شيئًا.

وانتظر عبده وهو يزداد قلقًا وتوتُّرًا، ويتساءل في حنق: متى تنتهي تلك التحريات المشئومة؟ والتقت عيناه بعينَي صاحبه إذ هما في المقهى، فقرأ فيهما ما أثار خواطره وسأله: ماذا وراءك؟

فقال بحزن شديد: ليس خيرًا.

فهتف: يا خبر أسود، ماذا قلت؟

– هي الحقيقة للأسف.

– لكن ظريفة ملاك.

– إنها ليست ملاكًا.

فغمغم بعد تردُّد: أنا أُريد البنت.

فقال الآخر بادي الامتعاض: أنت حر.

وانطوى على نفسه يفكِّر ويفكِّر، ويتردَّد بين الإقدام والإحجام، وضاعف من تعاسته أن رزق اعتكف في بيته لمرض طارئ. وذات أصيل وهو منفرد بنفسه في المطحن ترامت

إلى أذنه زغرودة، وجاءه عامل ليُخبره بأن رزق كتب على ظريفة في حفل خاص ونفر من الأهل.

وثار عبده ثورةً جعلته يبدو بين عُمَّاله كالمجنون حقيقةً لا مجازًا. وزاره قريب لرزق يحمل إليه اعتذاره وقوله إنه فعل ما فعل لينقذه من شرٍّ كبير كان حتمًا سيقع فيه. وضاعف الاعتذار من جنونه، وأعلن طرده من المطحن، وتوعده بشرٍّ من ذلك.

ولكن الذي حدث غير ذلك. وقال لي شيخ الحارة — وهو راوي قصة عبده ورزق وظريفة — إن عبده عاد مع الأيام إلى رشده، وغرق في عمله لا يدري ماذا يفعل، فاقتنع بانه لا غنى عن رزق، وعفا عنه وأعاده إلى مركزه السابق.

والأعجب من ذلك كله أنه فاجأنا ذات يوم بالزواج من أم ظريفة!

الصعود إلى القمر

تمَّ الهدم وبقيت الأنقاض. تجلَّت أرض البيت القديم مساحةً شبه مربعة في الفضاء، خاليةً من أي معنًى وبلا رموز. وقلت للمهندس وهو أيضًا صديقي: انظر كم هي صغيرة!

فقال وهو يتأمَّلها متفكِّرًا: كان فيها الكفاية لإيواء أسرة ما شاء الله كبيرة.

واستغرق في تأمُّلاته، ثم استطرد: لا جدوى اقتصادية من بناء مسكن أو عمارة صغيرة.

– قلت لك إنني لا أفكِّر في ذلك.

– لكن ما تفكِّر فيه خيال خارق. إليك مشروعًا طريفًا ومفيدًا؛ أن نبني مشربًا لبيع العصائر والحلوى، وسوف يكون تحته في هذا المكان الأثري، وألف من يتقدَّم لاستئجاره إذا عُرض للإيجار في الوقت القريب.

فابتسمت قائلًا: فكرة طيبة، ولكني لم أقصدك إلا لتنفيذ ما في رأسي.

– إنه خيال أشبه باللعب.

فقلت بإصرار: أُريد أن أُعيد البيت القديم كما كان أول مرة دون أدنى تغيير حاذفًا الزمن من الوجود.

وخلوت إليه في مكتبه. وأصغى إليَّ بعناية ويده لا تكف عن الرسم والتخطيط. ودار نقاش مرات، فعندما وصفت له المدخل والسلَّم قال: أسلوب فج، ويصدم القادم بوجوده دون أي تمهيد، دعني.

فقاطعته بإصرار: ما أُريد إلا أن يرجع البيت إلى أصله.

وفي لحظة أخرى قال: المسكن لن يزيد عن حجرتَين أكبرهما صغيرة.

– أنا عارف.

– وتضيع نصف المساحة لبناء حمَّام يتسع لخزَّانٍ لتطهير الزهر والورد، وبناء فرن بلدي؛ أي زهر وورد وخبز؟!

– هذا ما أريد. ولا تنسَ السطح، فيه حجرة صغيرة صيفية، وحجرات لتربية الكتاكيت والأرانب.

وضحك صديقي طويلًا ولكن يده لم تكفَّ عن التخطيط. إنه يعلم جيدًا أنني لا أفكِّر في الاستثمار. وكان مرجوِّي أن أقيم استراحةً شعبيةً لبناتها الذكريات والأحلام، وتنفع مهربًا من هموم الحياة وضغوطها، وعندما يتم تأثيثه وتزيينه من مَحالِّ خان الخليلي سيكون تحفة، ولكن بمعنًى آخر غير ما قصده صديقي المهندس من بناء المشرب وإعداده للسياح والأهالي. ولعله أساء الظن، حذَّرني قائلًا: ستكون في قلب حي عريق؛ فحذارِ من تجاوز التقاليد.

فضحكت وقلت له: لو فكَّرت في شيء ممَّا تعني لوجدت سبيلي دون حاجة إلى هدم وبناء!

وتمَّ بناء البيت أو إعادة بنائه على ما اتفقنا عليه. وكنت أتابع خطوات البناء الأولى، ثم انقطعت عنه لأستمتع برؤية جِدَّته[1] وكأنها مفاجأة سعيدة. وقال لي المهندس: تمَّ كل شيء كما تريد، فأرجو ألَّا تندم.

وذهبت معه لإلقاء نظرة أخيرة والتسلُّم. وعندما أقبلت من أقصى الطريق تراءت المشربيَّتان كما كانتا تتراءيان في الزمن القديم. وكعينَين ترمقان دعتاني للدخول، قام البيت بين البيوت القديمة على ناحيتَيه التي بقيت على حالها دون أي تغيير خارجي، أمَّا سكانها القدامى — جيران الزمان الأول — فقد تلاشَوا في غياهب المدينة، ولم يتردَّد لأحدٍ منهم ذكر إلا في صفحة الوفَيَات. وجعل قلبي يخفق. ورأيت المطرقة معلَّقةً بالباب، فرأيت الأيدي العزيزة تقبض عليها. وقال المهندس كالمعتذر: كان عليَّ أن أتخذ الاستعدادات لإدخال المياه والكهرباء.

فقلت له: في نيتي أن أستعمل المصباح الغازي.

– ستكون جاهزةً إذا احتجت إليها عندما تفيق من الخيال.

ولكني أمعنت في الخيال وأنا أرتقي في السلَّم العالي. وحال بلوغي الطابق المعد جُذبت إلى الوراء البعيد بشدة. غاب عني صوت المهندس، كدت أنساه تمامًا. ها هو الفرن، لكن

---

[1] شكله الجديد.

أين حرارة الدفء واللهب والمجلس السعيد؟ وتقت إلى عبق الخبيز. وها هو الحمَّام بمَنوره المزركش وخزَّانه العريض، والحوض المفعم بالزهر والورد. وها هي أنابيب التقطير تكاد تسيل بالرائحة الذكية. وجلست أراقب اليدَين في نشاطهما العذب وأستمع إلى التلاوة. واندفعت أجري في الدهليز بين الحجرتَين تُطوِّقني الأصوات المحذِّرة. واختلط التهديد بالضحكات العالية. واعترضني الذي يضع على وجهه قناعًا من الكرتون رُسمت عليه صورة الشيطان. وجاء صوت معاتبًا: «لا ترعبه فالرعب لا يزول.» وصعدت إلى السطح فهالني أن أجد الحجرة الصيفية خاليةً من غطاء اللبلاب والياسمين، وأن أرض السطح خالية من السلَّم الخشبي وحبال الغسيل. وجذبني صياح الديك إلى حجرة الدجاج فهُرعت إليها، وفردت جلبابي وأمسكت بطرفه لأجمع فيه البيض.

وصِحت فيمن يرافقني: «انظر.» وأشرت إلى لون المساء الهابط على الحي من خلف القِباب والمآذن. وطلع البدر في خُيَلاء من وراء البيوت العتيقة، فتطلَّعت إليه بشغف. عند ذاك رُفعت فوق الكتف، وهمس لي الصوت الحنون: «خذه إن قدرت.» فمددت يدي بمنتهى الحب والأمل إلى البدر الساطع.

معركة في الحصن القديم

عاد إلى الحارة في أول إجازة بعد فترة غياب غير قصيرة. وهمسَت امرأة: «ذهب يوم الكشف بجلبابه، وها هو يعود بالبدلة الكاكي. ما أجمله في البدلة الكاكي!» وحذاؤه الأسود الضخم لم يخفَ على أحد، ولا طربوشه الطويل. أجل نحُف، ولكن عوده اشتدَّ وصلب. اكتست بشرته بسُمرة غميقة من شمس الصَّحْراء. وقال عجوز سبق تجنيده: أمامه خمس سنوات سُخرة كسائر الجنود المساكين.

يوم دُعي للتجنيد كان من أيام الحارة الحزينة. هُرعَت أمه إلى شيخ الحارة وقالت له في ضراعة: «نحن في عرضك!» فقال لها الرجل: «قوانين الحكومة لا تجدي معها الشفاعة.» وأوصاها أن تذهب به إلى رجل مشهود له بالمهارة فيضمن له عاهةً تعفيه من القَبول يوم الكشف، ولكن الشاب رفض الفكرة وقال لأمه: إنه يفضِّل خدمة الجيش خمس سنوات عن عاهة تلتصق به طوال الحياة. هكذا قُبل جنديًّا بلا زغاريد.

ويوم المحمل احتفلت به الحارة كلها. احتلَّ الرجال قطاعًا من الطريق فيما يلي حي الشوام، وتكأكأت النسوة فيما بين الحمَّام والجامع. وخفتت ضجة الجماهير حين ترامت أنغام الموسيقى النحاسية، ثم أقبلت فرقة من المُشاة تتقدَّم الموكب، تسير أربعةً أربعةً واضعةً البنادق على المناكب. وظهر الشاب بين الجنود، جادًّا جدًّا بخلاف ما أُلِفوه. ولمَّا مرَّ صفُّه أمام أهل الحارة من الجانبَين، تعالى الهتاف والزغاريد، ورفعوا أمه فوق عربة كارو وقفت عند جانب الطريق، وخفقت القلوب بالأفراح.

وعاد الشاب إلى حارته في الإجازة ليستمتع بشيء من الحرية والراحة. وعزمت أمه على ألَّا تضن عليه بشيء ولو باعت آخر أسورة في معصمها. وقال لأمه وهو يخلع ملابسه: حياة القشلاق فوق طاقة البشر.

فدعت له بالقوة والصبر، ثم قالت متشكية بدورها: وحياتنا في الحارة أصبحت مثل حياة القشلاق وأسوأ، ألم تسمع بما حصل؟

بلى قد سمع كلمات متناثرة، ولكنه لم يدرك أبعاد الحكاية، فواصلت أمه قائلة: لم يكن ينقصنا إلا العفاريت، ألم يكن في الناس الكفاية؟

الواقع أدرك الشاب أن الحارة تمر بمحنة. قدر رهيب حرَّك الشر في قلوب ساكني الحصن الذي يوجد بابه المغلق تحت القبو. وعلى غير عادة جاوزوا حدودهم في العبث، فقطعوا الطريق على كل من انفردوا به ليلًا، وملئوه رعبًا، فسقط منهم جرحى وهم يفرون من الهَول. استمع الجندي إلى حكايات الضحايا، وعاين الجراح والكسور، ثم قال بامتعاض شديد: ما يصح أن تعبث العفاريت بحارة مؤمنة.

فأيَّده جميع السامعين، وقال صوت: نحن في حاجة إلى بطل.

فهزَّ الحماس الشاب وقال: أنا لها!

فثارت ضجة وهتاف، وتحمَّس كل شخص باستثناء أمه، فأسكره الحماس وصاح متحديًا: أنا لها!

وانتظروا المغيب وقد تعلَّقت به الآمال. وانزوت أمه تبكي. وهبط المساء ذلك اليوم في هالة من التهاويل والأخيلة الخارقة. ووقف الجندي ممسكًا بعصًا أهداها إليه فتوة متقاعد. وتقدَّم من القبو يشق طريقه في زحمة الخلق، فعلت الضوضاء حتى غطَّت على تحذيرات أمه الباكية. وفي صوت قوي واحد صاحوا: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.» وفي ثبات ظاهر مرق الجندي من باب الحصن القديم. وأنصتوا بقلوب راجفة ودفنوا الهمسات في الصدور. ومال شيخ الحارة نحو الإمام وسأله: كيف تنتهي المعركة؟

فأجاب الإمام: الله يؤتي النصر من يشاء.

وندت من الداخل حركات عنيفة ارتعدت لها القلوب، ثم كان انفجار، تبعه صوت كالرعد، وانتشرت في جوف القبو أصوات دقٍّ وكسر وتمزُّق وزمجرة، ودار همس حار مع الأنفاس المضطربة: «الدقيقة بعام كامل. لو انهزم الحق، علينا أن نرحل عن الحارة. لولا حكمة ربنا ما أقدم الشاب على المعركة.»

وساد الصمت فجأة، وفُتح باب الحصن مرةً أخرى، فاقتحم صريره سكون الليل. وأمر شيخ الحارة بإشعال فوانيس الطوارئ، فاشتعلت وتراءت على أضوائها الوجوه الشاحبة، ولاح الجندي في الباب، فهتف الناس بجنون: «الله! الله!» وتقدَّم نحو الحارة يسير في مِشية

عسكرية فأوسعوا له. وإذا بطابور من الأشباح يتبعه بنفس المِشية يسيرون أربعةً أربعة. ذُهل الناس وهم يرَون الطابور وهو يشغل سطح الحارة من القبو حتى مخرج الميدان. وتوقَّف الجندي، فتوقَّفوا وهم يتحرَّكون محلك سر. ظلُّوا يتحرَّكون هكذا حتى لم يجِد الناس مكانًا إلا لصق الجدران.

وأَلِف الناس الفرحة، وأفاقوا من سكرتها، وحل محل ذلك تساؤل ودهشة وقشعريرة خوف. وسأل رجل شيخ الحارة: عمَّ أسفرَت المعركة؟

فقال الرجل بضيق وسرعة: ألَا ترى ما أمامك يا أعمى؟!

وأصرَّت الأم على إطلاق تحذيراتها حتى رُميت بالجنون. ولم يعُد يُسمع في الليل إلا وقع الأقدام الثقيلة!

العشق في الظلام

عندما يُغلَق باب المقهى لا يَبقى ساهرًا فوق أرض الحارة إلا الخفير. لِتَفقُّد أقفال أبواب الدكاكين، يذهب ويجيء ما بين الميدان وممر القرافة، سائرًا في ظلام دامس متلمِّسًا طريقه بغريزته المكتسبة من العمل، ومعلِّقًا بندقيته بمنكبه، وبين حين وآخر يُطلق نذيره الحَلقي الذي يشق الظلمة.

أُطلق عليه منذ بدء خدمته «أبو الهول»، بما يرمز له الاسم في الذاكرة الشعبية من الجلال والرهبة. الواقع أنه ذو طول مؤثِّر، وعرض لا يتناسب مع ذلك الطول. أمَّا شاربه فيقف عليه الصقر. وأمَّا رأسه فصغير، وقلبه طيب لا يتوافق مع أغراض وظيفته. والحق أنه مضى يهزل ويرق وتتجمَّع في عينَيه سحابة حزن. وتساءلت القلة التي تراه وهو يبدأ عمله الليلي عن السر. وتجرَّأ أحدهم فقال له: لستَ على ما يرام يا خفير بندق.

فأجاب بغموض قائلًا: هي الدنيا يا معلم.

إنه يعاشر الظلام، ولا يعرف من أهل الحارة إلا الراجعين قُبيل الفجر من الحشاشين والسكيرين والخباصين، ولعله لا تصل إلى مسمعَيه في صمت الليل إلا الأنَّات الشاكية، وقيل إنه سيهزل ويهزل حتى تعجز الأعين عن رؤيته.

ولكن الأنَّات الشاكية لم تكن الأصوات الوحيدة التي تزحم أذنَيه، هناك الصوت الذي يتسلَّل من نافذة بدروم البيت القائم أمام السبيل، أسمعه أنينَ الحب وأنغامه. كل ليلة عقب عودة النجار من سهرته، يترنَّح ويدندن، ثم يهبط إلى مسكنه، وبعد فترة وجيزة تتسلَّل الأنغام من منافذ النافذة، كل ما استطاع أن يعرفه أن البدروم مسكن للنجار وامرأته ست بطة، ولكنه لم يرَها أبدًا، إنها تقضي شئونها في غرفتها. عرفها من صوتها آخر الليل، ولم

يكن من أهل الحارة، ولكنه عشق الصوت، وهام به هُيامًا حتى نبض في قلبه، وتردَّد في أنفاسه. يسمعه ليلةً بعد أخرى، ويتشرَّبه ساعةً بعد أخرى، ويخلق من ترنيماته وتهويماته صورةً جامعةً لمحاسن نساء الريف والمدن، يناجيه في سهرته الطويلة، ويستغيث به في وحدته. وتجسَّد له مرات فحاوره ودعاه، وقال له لا يعرف الألم الدفين إلا خالقه، ولا يغيظه شيء كما يغيظه دندنة النجار وهو عائد مترنِّحًا. وخطر له أنه لو أعياه السطول ليلةً فسقط، لحمله إلى الداخل ليرى ست بطة. ورنَّ صوته في القبو مرةً وهو يغنِّي:

باسمع نغم بالليل عشق الحبايب هدني الحيل.

وأعجبه صدى صوته داخل القبو، فأعاد الغناء وفاض به الحنين فتساءل: «وإيش بعد الغناء يا بندق؟»

وجاءه صوت من وراء باب الحصن الأثري: ما بعد الغناء إلا العمل.

فارتعد متذكِّرًا ما يقوله أهل الحارة عن سكان القبو، ولكنه تشجَّع ضاغطًا بذراعه على بندقيته، وسأل بلهجة ميري: مين أنت؟ كيف دخلت الحصن؟

فأجاب بصوت باسم: أنا شيطان يا خفير بندق، ولولا الشيطان ما كان الإنسان.

وسرى الصوت في كِيانه بقوة فلم يشكَّ في أنه بحضرة شيطان حقيقي. حاول أن يتلو سورةً ولكن رأسه أُفرغ من محفوظاته القليلة، وسأله مستسلمًا: ماذا تريد؟

– ماذا تريد أنت؟

– ما أُريد إلا أداء واجبي.

– أنت كذَّاب.

وترامت إليه دندنة النجار وهو راجع فخفق قلبه، وقال الصوت من وراء الباب المغلق: أعطني بندقيتك.

لم يذعن ولم يرفض، ولكنه شعر بالبندقية تُنزع من حول منكبه. وفجأةً دوَّت طلقة نارية فمزَّقت مخالبها ستار الليل. نام ثواني، فحلم ثم صحا، ولمَّا صحا رأى شفافية الضياء الباكر تهبط في مركبة سماوية، ورأى لَمَّةً تحيط بجثة يتدفَّق الدم من فيها، وانكبَّت فوق الجثة امرأةٌ وهي تصرخ وتبكي وتندب أبا العيال.

وندَّت عنه حركة، فاتجهت إليه الأبصار، وأكثر من صوت سأل: من قتل الرجل يا خفير بندق؟

فتراجع حتى استند إلى شرفة السبيل وهو يحدِّق فيهم.

– لا بد أنك رأيت كل شيء، فمن قتل الرجل؟

فأجاب بذهول: قتله الشيطان!

وكان يرى ست بطة لأول مرة، ولآخر مرة.

ذاكرة الجيران

في ليلة وقفة رمضان لعامٍ من الأعوام البعيدة الماضية، قامت خناقة ما لها إلا النبي بين أسرتَي برغوث وعميرة. وكالمألوف في تلك الظروف اضطرب استقرار الحارة فأُغلقت الدكاكين وصوَّتت النساء وزاطت الصبية، ووقف إمام الزاوية وهو يصيح بأعلى صوته: وحِّدوا الله! ما هكذا يُستقبل الشهر الفضيل!

ولكن لم يتمكَّن أهل الخير من التخليص بين الأسرتَين قبل أن يصاب منهما رجلان مهمَّان هما: محمود برغوث والناصح عميرة. وساءت حالتهما وتدهورت؛ ففارقا الحياة في يومَين متعاقبَين. وهلَّ رمضان في جو من الوجوم والأسى، وقال الناس إن هذا لا يُرضي الله ولا خلقه، وإنه يجب وضع حدٍّ لتلك العداوة المتوارثة، خاصةً بعد أن اندفع تيارها في مجرًى جديد لم يعُد يقنع بالجرحى، ولكنه سجَّل أول ضحيتَين له من الموتى. وقالوا إنه على كل صاحب نفوذ أن يتدخَّل وأن يبذل ما يملك من قوة لإقرار الصلح بين المتخاصمَين منذ الزمن السحيق. وبناءً على بلاغة إمام الزاوية وضغوط الأهالي، قرَّر شيخ الحارة أن يتحرَّك. دعا إلى دكانه كبيرَي الأسرتَين؛ علي برغوث وخليل عميرة، وقدَّم لهما القهوة، وطلب منهما أن يقرآ الفاتحة ويصلِّيا على النبي.

– لنطرد الشيطان عن مجلسنا.

وقلَّب عينَيه بين الرجلَين، ثم قال: ما بينكما قديم، وضحاياه من الجرحى لا يحصَون على المدى الطويل، ولكن بالأمس القريب مات رجلان ولا كل الرجال، والموت يدفع إلى الموت، والمسألة لم تعد محتملة، والجميع يريدون لها أن تنتهي. فلْنحتكم إلى العقل والدين لنصفِّي الحساب القديم ونبدأ حياةً جديدة. فتوارى كلٌّ منهما وراء صمته، وعكست الأعين صلابةً وضيقًا، فقال الشيخ: لنطرح أسباب الخصام أمامنا، وإن لزمت دية دُفعت، أو كانت خطيئة كُفِّر عنها. لا داء بلا علاج، ولا بد للشر من نهاية.

ولَمَّا آنس منهما رفضًا وعنادًا راح يصارحهما بأن أسرتَيهما صارتا تسلية الماجنين من أهل حارتنا، يضربون بهما المثل؛ فيقولون لبرغوث وعميرة كما يقال عن القط والفار.

يتقابل الكهلان الوقوران منكم فيتبادلان الشتائم، تتراءى المرأتان فيدور الردح والتشليق، أمَّا لقاء الشباب فالعنف والدم. ومن عجب أنني لم أعثر على شخص في حارتنا يعرف لخصومتكما سببًا، أكان زواجًا أو طلاقًا أو صفقةً خاسرة، أو جريمة؟ الظاهر أن السبب ذاب في مخزن التاريخ، وبقيت العداوة وحدها.

ولكنكما كبيرا الأسرتَين، ولا بد أنكما تعرفان السر. فلنطرح السبب بيننا، وإن لزمت دية دُفعت، أو كانت خطيئة كُفِّر عنها.

ظلَّ جدار الصمت قائمًا بينهما وبينه، فهدهد غيظه وتساءل: يا معلم علي، ماذا تريد لترضى؟ وأنت يا معلم خليل، ماذا تريد لترضى؟

وبإزاء استمرار الصمت هتف: «يا صبر أيوب!» ثم وجَّه خطابهما لهما: اكشفا لي عن سبب الخصام.

ثم بعد فترة يسيرة قال برجاء: حلَّفتكما بالحسين أن تتكلَّما.

لكنهما لم يَنبسا بكلمة، وفي الوقت نفسه قلقت نظرة حيرة في أعينهما، فاستردَّ نبرته الحازمة وقال: لا بد من الكلام، وإلا دعوت الشرطة والنيابة للتدخُّل في الشئون التي تعوَّدنا أن نعالجها بأنفسنا.

ولَمَّا قرأ الإعياء في وجهَيهما فضَّ الاجتماع وهو يتمتم: لنا عودة.

ومرَّت بشيخ الحارة فترة بحث وتقص، فسأل الكثيرين من أفراد الأسرتَين عن سبب الخصام، ولكنه لم يظفر بجواب، بل وضح له أنهم يجهلون السبب تمامًا، وكما قال لإمام الزاوية فإنهم يذكرون العداوة جيدًا، ولكنهم لا يعرفون علَّةً لها. وركبه التصميم فقرَّر أن يزور الدفترخانة، ثم دعا إلى دكانه كبيرَي الأُسرتَين؛ علي برغوث وخليل عميرة، وقال لهما بثقة هذه المرة: لا أحد يعرف السبب سواكما، وإن كنتما تجهلانه كالآخرين فإني على أتم الاستعداد لكشفه لكما.

فسأله المعلم علي بحدَّة: من أين لك تلك المعرفة؟

فأجاب بهدوء الواثق: فتَّشت عن ذلك في دفاتر شيوخ الحارة المعاصرين للأجداد، وقرأت في دفتر أحدهم، ووقع نزاع فاضح بين برغوث وعميرة.

عند ذاك صرخ المعلم خليل: كفى.

فسكت شيخ الحارة قليلًا، ثم قال: لم يكن الأمر فاضحًا بهذه الدرجة في الزمن القديم، ولكن جرى الزمن وتغيَّرت القيم، فأصبح سبب النزاع ممَّا يوجب الستر، فأجمع

المتخاصمون على إغفاله حتى نُسي، وبقيت الخصومة وحدها تتوارثها الأجيال. وابتسم في وجهَيهما ليخفِّف من وقع حديثه، وقال برِقة: معذرة، إن هدفي الوحيد هو الكف عن الأذى والعودة إلى حياة الجيران.

مدد

عُرف عبدين يومًا بحكايته التي جرت على كل لسان. ورث دكان العطارة الصغيرة عن أبيه، فيسَّرت له رزقًا موفورًا، وعاش مع أمه بعد زواج إخوته في بيتهم القائم أمام الزاوية، وتميَّز بين شباب الحارة برشاقة القوام ووداعة القسمات، ودماثة الخلق وحسن العلاقات مع المعارف والأصدقاء. أمَّا أول ما اشتُهر به من الطبائع وألصقها بعقله وقلبه، فهو إيمانه بالعرَّافين وولعه بزيارة أضرحة الأولياء، ولم يكن يخطو خطوةً حتى يستخبر أهل الذِّكر، ويستعطف القدر. وكان لعبدين جيران، صاروا لطول الجيرة وحسن السيرة وكأنهم من صميم الأهل. وكانت لهم بنت تدعى شمائل، وُلدت بعد عبدين بعامَين، فعرفها منذ كانا يلعبان في الحارة، أو تجمعهما زفة الفوانيس في رمضان. وعُرفت شمائل بإشراق الوجه وحسن التكوين، وجمال الأدب، وأتقنت منذ فترة شئون البيت، وما يلزم ربة البيت من ضرورات وكماليات، وحتى الخط كانت تفكُّه، فتكتب اسمها كما تكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

وكان من المتفق عليه والمعروف في الحارة أن شمائل هي عروس عبدين، وأن عبدين هو عريس شمائل، وفضلًا عن ذلك فقد ربط الحب بينهما، ومهَّدت البسمات لمعجزة اليوم الموعود.

ولَمَّا اقترب الوقت المناسب تحرَّك طبع الفتى الدفين، وقال: كيف لا يفوتني سؤال الشيخ لدى كل حركة عادية أو تافهة ولا أقصده في مصير حياتي؟ وأخذ بعضه وذهب إلى شيخه العارف بالله الشنواني بحجرته بأم الغلام، وطرح سؤاله والآخر يقبض على يده ويشم عرقه، ثم قال له الشيخ: اذهب الآن إلى حارتك وانتظر عند مدخلها، وسلِّم أمرك لأول بنت تخرج منها، هي التي تحمل لك سعادتك المقسومة لك في هذه الدنيا، ولن تحظى بخير منها إلا في الآخرة.

ورجع على حارته وهو في غايةٍ من التوقُّع والتوتُّر، وكان على شبه يقين من البنت التي سيراها، ولكن أين تذهب شمائل في ساعة الغروب؟ وكان سرحان الأعمى أول من خرج من الحارة، وتلاه غلام يسوق الطوق ويغنِّي: «على باب حارتنا حسن القهوجي». واشتدَّ قلق عبدين فقال في سرِّه: «سلَّمت إليك أمري يا رب العالمين.» وإذا بصوت ينادي: «عال الجوافة.» وظهرت عربة يد فوقها هرم من الجوافة تدفعها حليمة. ذُهل، لم يُحوِّل عينيه عنها، وضحكت هي لمَّا رأته، وقالت مداعبة: «واقف مثل غفير الدرك.» ومضت نحو الميدان، سار وهو يقول لنفسه: «يا رب لطفك ورحمتك!» أيعني الشيخ حقًّا حليمة بنت أم حليمة بياعة المخلل وابنة المرحوم أحمد المكاري؟ لا أحد في حارتنا يجهل حليمة، وهي أيضًا تتعامل مع الجميع، ولكنه كما تقول أمها مفاخرة: «رجل بين الرجال.» رغم رشاقة عودها وثرائه. وكانت مقبولة الوجه وجذَّابة أيضًا، رغم قوة نظرتها النافذة. وخلا عبدين إلى نفسه ليتفرَّغ للحَيرة، ويذهب مع خياله ويجيء بين شمائل وحليمة، وشكا سره إلى صديقه الذهبي فقال له: أي وجه للمقارنة بين شمائل وحليمة؟! وأنت عرفت شمائل من خلال الجيرة والمعاملة وشهادة المعارف والجيران، أمَّا كلام الأولياء فليس منزَّلًا من السماء، ولكن إيمان عبدين بقول الولي كان فوق أي مناقشة. وانتشرت رائحة الخبر رويدًا رويدًا، فأثارت الدهشةَ والضحك، كما بعثت الدموع في أعين كثيرة، وحصل كلام ونزاع وصراع، ولكن عبدين صمد لكل معارضة بقوة إيمان لا يتزعزع. وفي ساعة العصرية، وقبل أن تتحرَّك حليمة بالعربة، ذهب عبدين إلى حجرتها بربع الزاوي، وطلب يدها من أمها، وأخذ الخيال يتحوَّل إلى حقيقة، وسمع حمودة في إحدى الليالي يقول في الغرزة على مسمع من جميع المساطيل: «المجنونة الجشعة ما أحبت أحدًا سواي، ولكن أعمتها صورة دكان العطارة.»

وذهبت العروس إلى الحمَّام لتزيل عن جسدها المشوق عرق الأعوام وغبار الحارة، وفلَّت شعرها المسكون، فتبدَّت في صورة لامعة، وزُفَّت إلى الفتى العطار، فأقام معها في شقة أمام السيرجة، ودعا ربه أن يهبه السعادة التي ضحَّى في سبيلها بقلبه وبكل اعتبار.

وكانت أيامًا صافية، وانغمس عبدين في هواه الجديد ليغطِّي على أصداء حبِّه الأول، ويدفن هواجسه، وفقدت الحكاية جِدتها ودهشتها، فلم يعُد يتندَّر بها أحد، وكان يمارس الحياة ويلاحظها بانتباه حتى لا يفوته سرٌّ من أسرار السعادة. ومنذ بدأ المعاشرة شعر بقوتها وصلابتها وبأنه يضعف أمام نظرتها النافذة. والحق أنه توقَّع أكثر ممَّا كان، ولكنه أقنع نفسه بأن السعادة الموعودة ليست هبةً بسيطة، أو إحساسًا سهلًا يجود بذاته منذ

اللحظة الأولى، إنها حياة عميقة ذات سراديب فلينتظر. أمَّا حليمة فلم تنتظر، سرعان ما ضاقت بحياتها في البيت، ولم تعُد تخفي ضجرها، ولا تمرُّدها على سجنها. وتحيَّر عبدين أمام ظاهرة غير مألوفة في دنيا النساء، ولكنها قالت له بصراحة وجرأة: دعني أعمل فقد خُلقت لذلك.

وذُهل عبدين، وأخرسه الذهول فاستطردت: لا يهمك كلام الناس، متى سكتوا عنا؟

وكانت تُصر وتصمد، وكان ينفعل ويتراجع، ولم تكن تهمُّه الحوادث، باعتبارها مقدمات لسعادة لا مفرَّ منها، ألم يقُل الشيخ الشنواني كلمته؟

وشهدت الحارة حليمة وهي تشارك زوجها في دكانه، ورجع الاتصال بينها وبين زبائنها القدامى في معاملات العطارة، ورجع حمودة أيضًا بين الغمز واللمز، وكثر اللغط والضوضاء حتى سأله صديقه الذهبي: أتعجبك هذه السعادة؟

ولكن عبدين بدا صامدًا مؤمنًا فقال له: الصبر طيب والنصر قريب.

ولكن حليمة اختفت فجأة، استولت على ما اعتبرته حقها من النقود المودعة في الدكان واختفت، وبعثت إليه رسولًا يعتذر إليه ويطلب الطلاق. كبُر كل شيء على عبدين، وقوَّض الزلزال صبره فبكى، ولمَّا رأى صديقَه الذهبي مقبلًا تعانقا بحرارة، وفي أثناء العناق استردَّ الكثير من روحه الضائعة، وقال لصديقه: سأطلِّقها في الحال.

فلم يُخفِ صديقه فرحه، ونظر عبدين إليه طويلًا في فترة صمت، ثم قال: إنها ستجرِّب حظها بعيدًا ولكنها ستعود تائبة!

وتنهَّد، ثم قال لصديقه الذاهل: كلمة الشيخ الشنواني لا تكذب.

علي لوز

شباب البنت سفرجل فترات متعاقبة من الزيجات الباهرة؛ زفة وقناديل، ورياحين، ومزامير وطبل ورقص، وكمائن للغدر تسيل عندها الدماء وترتطم النبابيت، ثم ليلة زفاف مفعمة بالعربدة، والتأوهات. تكرَّر ذلك خمس مرات استنفدت شباب سفرجل كله، انحدرت بها إلى طلائع الشيب والكرب. خمسة فتوات من عمالقة الحارة، هيئوا لها — كلٌّ على طريقته — حياة عز وجاه وسلطنة. وانتهَوا جميعًا، كل في موعده. يسقط الرجل قتيلًا أمام فتوة آخر، أو حملة من الشرطة، أو في السجن، ويُنهب بيته، وتجد سفرجل نفسها شبه عارية وعلى الحديدة، تبحث عن مأوًى حتى يهبَّ لنجدتها أحد أهل التقوى والكرم.

وعقب دفن الزوج الخامس زارت جامع الإمام ووقفت أمام ضريحه، وباحت بمكنون قلبها المكلوم: «أعاهد الله أمام ضريحك على ألَّا أتزوَّج من فتوة أبدًا بعد اليوم». وهمست لنفسها: «أعوذ بالله من الفتونة والعنطزة والدم المسفوك». ولم يكن الضيق بالحياة المضطربة وحده هو ما دفعها إلى ذلك التعهُّد، ولكنها كانت قد فقدت الشباب والنضارة، وأخذ الشيب يطل من مفرقها وذؤاباتها، فلم يبقَ لها من جمالها القديم إلا مسحة توارت في استحياء تحت قناع الكدر والهموم، ولم يعُد يعدها الغد إلا بالمزيد من الشيخوخة والفقر. فعزمت عزمةً صادقةً على مواجهة الحياة بإصرار واستسلام معًا، رافضةً أي إحسان أو صدقة. وكان من ضمن ما أتقنته صنع حلوى «علي لوز»، فعملت على إعداد صينية كبيرة منها كل يوم، تسرح بها في الحي في جولة، ثم تجلس بقية يومها عند طرف سُلَّم السبيل حيث يجلس عند الطرف الآخر شحاذ الحارة الضرير. واختارت حجرةً في بدروم بيت قديم مسكنًا لها. هكذا رضيت بحياة غاية في البساطة والقناعة أملًا في الاستقرار والطمأنينة.

وبخلاف الجميع ظلَّت أم شاور الخاطبة تؤمن بأن حظ سفرجل لم يقُل كلمته الأخيرة بعد، وتبادلت معها الحديث يومًا فشرَّقت وغرَّبت، ثم إذا بها تسألها: عندي فتوة من حارة أخرى معروف بحب العتاقي!

فهتفت سفرجل بحِدة: أعوذ بالله!

وغابت عنها مدة دون أن تقطع منها الأمل، ورجعت لتقول لها: لن أتركك للتراب، لديَّ هذه المرة شيء مناسب.

فراحت سفرجل تنادي على «علي لوز»، وهي تلحظ أم شاور بحذر، حتى أفصحت هذه عمَّا لديها فقالت: شيال الحمول!

فقالت سفرجل بعتاب: قلت لك أعوذ بالله من الفتوات وسيرتهم!

– شيال الحمول أبعد ما يكون عن الفتونة.

وكانت شهرة شيال الحمول قد ذاعت لطاقته الخارقة على تحمُّل الضرب، فاستعمله بعض الفتوات درعًا يحمي ظهره من الضربات الغادرة. وقالت أم شاور مؤكِّدةً ذلك: لا قدرة له على القتال، أو هو كما وصفوه جسم فيل وقلب عصفور، فهو عز الطلب.

فقالت سفرجل بحزم: من أجل علاقته بالفتوات والمعارك أقول حد الله بيني وبينه.

وذهبت أم شاور يائسةً تاركةً إياها في دُوامة من الانفعال، وإذا بصوت يتسلَّل إليها قائلًا: أحسنت. ابعدي عن الشرِّ وغنِّي له.

فنظرت نحو الشحاذ الضرير بدهشة وهتفت: تسترق السمع!

واقترب الرجل منها، ومدَّ لها يده بقطعة نقود قائلًا: هاتي ما قسم من علي لوز.

لم يكن ذلك بأول حوار يدور بينهما، ولكنه كان أول حوار ذي معنًى. وكان الضرير مَعلمًا ثابتًا من معالم حياتها. وهو رجل يلفت النظر بعماه وصبره وقوة جسده، وبما يُنشده من مقاطع لمدائح نبوية تقرُّبًا من المحسنين، ورمقته وهو يمضغ الحلوى باسمًا في ارتياح وتمتم: حلوة من يد جميلة.

فقالت سفرجل ساخرة: شهادة زور.

– بل إنني أرى بأذني.

فسألته دون مناسبة ظاهرة: ولماذا تشحذ وأنت رجل قوي؟

فقال محتجًّا: أشحذ! أعوذ بالله! ما أنا إلا مُطرب يسترزق بإنشاد المدائح النبوية والإلهية.

وتنحنح ثم أنشد بصوته الجهير:

شربنا الحب كأسًا بعد كأس
فما نفد الشراب وما رَوِيت

فضحكت من قلبها أول ضحكة صافية منذ عهد بعيد، واهتمَّت بمراقبته في الأيام التالية، فأدهشها أن تلاحظ أن دخله يفوق دخلها أضعافًا مضاعفة، ولم تشكَّ في أنه يكنز النقود حول بطنه فيما ظنَّته كرشًا كبيرة. وأصبحا يتبادلان التحيات والكلام، ويتعلَّل بشراء «علي لوز» ليبث في الاتصال مودةً وحرارة، حتى تشجَّعت يومًا وقالت بإغراء: غيِّر عملك، هذا أفضل.

ولكنه دافع عن عمله بحماس كالعادة فقالت: فتح دكان للحلوى أفضل.

فتفكَّر قليلًا، ثم تساءل بمكر: ألَا يحتاج ذلك إلى شريك؟

فقالت ضاحكة: لديَّ شريك جاهز، فاعزم وتوكَّل على الله.

قمر

وذات يوم فُتحت البوابة فندَّ عنها صرير هائل، ونُفض الغبار عن أركان الدار ونوافذها وأبوابها.

وحمل إلى الخارج نفايات الحديقة والأعشاب والغصون الجافة. وذُهل الناس ومضَوا نحو الدار من البيوت والدكاكين، يشاهدون الخدم العاملين ويتساءلون. ألفنا على مدى العمر منظر حارتنا، وفي الوسط منها تقوم دار مغلقة نشير إليها عند اللزوم فنقول دار قمر، دون أن نفقه للاسم أي معنًى، كما نقول أم الغلام وأرض المماليك. ها هي الدار تُعدُّ من جديد للحياة، وها هم الخدم يذهبون ويجيئون، وها هو الحنطور يقدم وئيدًا حاملًا امرأةً عجوزًا منتقبة. وأحاط الناس بالحنطور، وارتفع صياح الغلمان، ولمَّا ظهرت العجوز مستندةً إلى خادمتَين، تطايرت كلمات مستهزئة، فغضبت المرأة ونظرت نحو الهازئين، وصاحت بصوت خلخلته الشيخوخة: يا غجر، أنا قمر!

عند ذاك اختفت الأسطورة ورجع التاريخ إلى مجراه، وراح نفر من الباقين من الزمان الأول يروون ما احتفظت به الذاكرة من الحوادث الماضية، وينتشلونها من بحيرة النسيان. كانت دار الحاج قمر أفخم دار في حارتنا، ولكنها تطالع الأعين بسور عالٍ حجري، تلوح من فوقه رءوس نخيل. وكان الحاج قمر أغنى أغنياء الحارة، وملك تجار المسابح والعِصي والنشوق المفتخر. واشتُهر الحاج بحب زوجته ورعايتها، وهذه بدورها أنجبت له أجمل طفلة في الوجود أسماها باسمه «قمر»، ولم ينجب غيرها لمرض أصابه؛ فازداد تعلُّقه بالصغيرة الجميلة. وكانت الطفلة تُرى وهي تلعب أمام الدار وهي مستقلة الدوكار مع أبيها. وكان لون بشرتها الأبيض الصافي، وسواد عينَيها وشعرها من أفتن مفاتنها. وظلَّت بهجةَ الأعين، وزاد الخيال حتى سرى إليها دفء الأنوثة، فحجزها أبوها

خلف السور العالي، وتوارى نورها عن الأبصار. ويذهب الناس ويجيئون أمام البوابة القائمة تحت التمساح المحنط وهم يَحِنون شوقًا إلى الوجه الصبيح، ويتخيَّلون صاحبته وهي تنضج، وتستوي على عرش الجمال والأُبهة. وتأمَّلت أم حسين الخاطبة الحال، ولخَّصت الموقف في جملة قائلة: «عشاقها بالمئات، أمَّا خُطابها الصالحون فواحد أو اثنان.» وحصل كلام من أكبر تاجر ليمون، مُزكِّيًا ابنه زين للزواج من قمر، فلم يرفض الحاج قمر العرض، ولكنه أَجَّل إعلانه حتى تبلغ قمر الثامنة عشرة من عمرها السعيد. وعُرف زين بالعريس الموعود، ولم يستطع أحد من عُشَّاقها ذوي الدخل المحدود أن يقلِّل من شأنه فسلَّموا للمقادير. لكن ظهر في الحارة في ذلك الوقت شاب غريب لفت الأنظار بقامته المتينة، وجلبابه الفضفاض، ولاسته المزركشة، وعصاه الغليظة. لم تُربكه الغربة، فشق طريقه بثبات إلى المقهى، وجلس إلى مائدة كأنما يجلس في داره، ولَمَّا رأى تطلُّع الأعين إليه متسائلةً قال بهدوء: محسوبكم عنتر ابن المعلم كفتة.

وسرى اسم أبيه في الأعصاب مثل قُشَعريرة الحمى، هو رجل من أطراف الحي ذو سطوة قادرة وسمعة سيئة. وتساءل الناس عمَّا جاء به، وظهر أنه كان ينتظر عودة الحاج قمر إلى داره، فلمَّا عاد نهض من مجلسه وسار نحو الدار في ثبات للقائه.

لم يعرف أحد ما دار بين عنتر وقمر، ولكنهم خمنوا السبب.

وانتشر القلق بين أهل الحارة مثل وجع الأسنان. هل طلب عنتر قمر؟ هل تنتقل قمر من دار العز إلى بؤرة الفساد والشر؟ وقلق أيضًا شيخ الحارة المسئول عن أمن الحارة وراحة أهلها، وقابل الحاج قمر وسأله عمَّا يجري، فقال الحاج: طلب عنتر القرب مني فأجبته بوضوح أن فاتحتها مقروءة، وأني لا أرجع عن كلمة أعطيتها. وبقدر ما ارتاح شيخ الحارة تضاعف قلقه. وقرأ الحاج ذلك في وجهه فقال: إني أعرف أني رفضت ابن كفتة ولكني قدها.

ومرَّت حارتنا بفترة من التوجُّس والقلق. وكل إنسان أدرك أن زفة العروس ستشهد معركةً دامية، ولكن من ذا يقف أمام كفتة ورجاله؟

وأجاب الحاج قمر إجابةً ملموسة: أؤجِّر فتًى من فتيان أرض المماليك عُرف بشدة البأس.

فجاء لحراسة الدار هو وعدد من عصابته. وأيقن أهل حارتنا أنهم سيشهدون معركةً حاميةً بين كفتة وعرجون، وتنَّوا النصر لعرجون إكرامًا لحارتهم، وحبًّا في الجميلة التي علَّمتهم الحب.

وأعلن الحاج عن يوم الفرح، ومهَّد له بالمقرئين يتلون القرآن الكريم والمدائح النبوية. وكثرت الحركة وعمَّ النشاط، واقترب يوم الهنا والدم، ولكن النشاط باخ وهمد وفترت الهمة.

وهمس إمام الزاوية في أُذن شيخ الحارة: «في الجو غيم.»

اختفى نصف العمال، وسكتت التلاوة، واختفى الحراس الجدد وفي مقدمتهم عرجون، والحاج قمر لم يعد يُرى، وخلا مقعده في الوكالة. وإذا بصيوان ينبئ عن موت ربة البيت، ولم يظهر الحاج لا في الجنازة ولا في المأتم، وذاع أنه مريض لا يغادر الفراش.

ولم يمضِ أسبوع حتى لحق الرجل بزوجته.

أهو المرض الذي دهم الأسرة وفرحها؟

وكيف تواجه الجميلة قمر الحياة بمفردها؟

ولكن الدار أُغلقت، وتُركت مهجورةً خالية لا يخدمها أحد.

ثم عُرفت الحكاية دون أن يُعرف مصدرها. عرفت الحارة حقيقة مأساتها وهي أن الجميلة المعبودة اختفت فجأةً فلم يقف أحد على أثر لها. اختفت في نفس اليوم الذي اختفى فيه عرجون الذي جيء به لحراستها ليلة زفافها.

واجتاح الحارة غضب وحزن وقنوط لم تشعر بمثله من قبل، قالوا محال أن تكون أحبته أو هربت معه مختارة، لعله خطفها، أو لعله عمل لها السحر والشبشبة.

وشعرنا مع الغضب والحزن والقنوط بالعار، وراحت نُخبة من عُشَّاقها تبحث عنها، وتتابِع أخبارها، وتفكِّر في إنقاذها ما وجدوا الحيلة إلى ذلك. وعُرف أن عرجون استخلص لها حقها في الميراث بالمحكمة وأنه استولى عليه، وأنه أساء معاملتها، وجرح مشاعرها بالجنايات التي احترف ارتكابها. وقيل إن بعض عُشَّاقها من أهل حارتها حاولوا الهروب بها، ولكنهم لم يُوفَّقوا، ولم يُسمع عنهم بعد ذلك.

ودخل الزمن في المأساة كما يدخل في كل شيء، فمضت حرارتها في الانخفاض التدريجي، حتى اعتاد الناس اختفاءها، وألفوا تعاسة مصيرها. وأخذت تُنسى ويكبر عُشَّاقها ويموتون، حتى جاء جيل لا يكاد يعرف عنها شيئًا، جيل يعيش أمام دارها المغلقة دون أن تثير فيه أي عاطفة، أو تدعوه إلى أي تأمُّل. وأصبح مثوى الجميلة أثرًا ميتًا يدعونه «دار قمر»، كأنها كلمة واحدة خالية من أي معنًى.

وذات يوم دبَّت الحياة في الدار وما حولها. فُتحت البوابة ونُفض الغبار عن أركان الدار ونوافذها، وظهرت أرض حديقتها من الأعشاب والغصون الجافة والنفايات، وأقبل

الناس من البيوت والدكاكين يتساءلون. وأفعمت أعين القلة المخضرمة بالحنين. وأقبل الحنطور يتهادى حتى وقف أمام الدار، وفي بطء شديد غادرته عجوز منقبة معتمدة على منكبَي امرأتَين. أحدقت بها الأبصار بين صمت وهمهمة. وارتفعت أصوات الغِلمان في سخرية واستهانة. وبدا أن المرأة غضبت فنظرت نحو مصدر السخرية، وصاحت بصوت خلخلته الشيخوخة: يا غجر، أنا قمر!

الزفة الميري

حارتنا في شبه عزلة، ويندر أن يمر بها غريب، وأهلها يعرف بعضهم البعض كأنهم أسرة واحدة، فإذا وفد عليهم غريب بسبب طارئ، كان وفوده علامةً من علامات الزمن تؤرَّخ بها الأحداث، من أولئك شيخ معمَّم اخترق الحارة حال عودته من زيارة المقابر عادلًا عن الطريق العام، وفسَّر ذلك بما تلاه من حوادث عندما أصهر إلى أسرة «شلبية»، ومنهم آخر أفندي طرق الحارة كالغائب، وجلس في المقهى ليشرب العديد من فناجين القهوة. وقيل إنه ضل سبيله. والثالث خواجا جاء ليلتقط بعض الصور الفوتوغرافية محاولًا التقرُّب منا بلغة ركيكة مفككة، فلم يتم أي تفهُّم مفيد.

وددنا أن تسير بنا الأمور بعيدًا عن أي كدر أو قلق، ولكن في يوم من الأيام التي تضاربت الأقوال في تحديده، أقبلت علينا جماعة من الأغراب تتقدَّم في خطوات ثابتة، ثم توقَّفت في منتصف الحارة لتتبادل كلمات خافتة. وكانوا تشكيلةً غريبةً متنافرة؛ منهم نفر من الأفندية، وشيخان مُعمَّمان، وفيهم أيضًا خواجا يغطِّي رأسه بقبعة عالية. توقَّف كل إنسان عن عمله لينظر، وامتلأت النوافذ بالضفائر، وخرج شيخ الحارة من مكتبه، ومدَّ إليهم بصره في توجُّس وحذر، وتحرَّكت الجماعة ذهابًا وإيابًا ما بين مدخل الحارة المفتوح على الميدان، ومخرجها المفضي إلى طريق المقابر. وجعلنا نتابعهم ونتوقَّع ما ليس في الحسبان. واتجهت الأبصار إلى شيخ الحارة، فأشار إلينا بالصمت والصبر. أمَّا الجماعة فواصلت مهمتها بفحص الجدران، والسبيل والكتاب وحوض مياه الدواب وكشك الحنفية والقبو، واهتمُّوا بالأرض المبلَّطة بالأحجار اهتمامًا خاصًّا، ثم رجعوا إلى وِقفتهم في الوسط يتناجَون. وارتفعت الهمهمة حتى شعر شيخ الحارة بالحرج، فاقترب منهم في حذر رافعًا يده بالتحية، غير أن أحدهم قال له بلهجة آمرة قبل أن يفتح فاه: انتظر في مكتبك.

فرجع الرجل إلى موقفه الأول منطوي القسمات من الخجل والإحراج، واستمرَّت الجماعة في المناجاة، وكانوا يُشيرون إلى جهات مختلفة أحيانًا، كما ندَّت عن أحدهم ضحكة، ثم يتحرَّكون نحو مخرج الحارة، وعبروه إلى الممر الموصل للقرافة واختفَوا عن الأنظار، وضجَّت الحارة بالأصوات، وعبَّر كلٌّ عمَّا جال بخاطره: من يكونون؟

– الله أعلم، ولكنهم من الحكومة على أي حال.

– ولماذا صبَّحونا بوجوههم العكرة؟

– ستخبرنا الأيام فلا تتعجَّل.

– رئيسهم الأفندي الذي يتقدَّمهم.

– وربما كان الخواجا رغم أنه يسير في الذيل.

وتراوحت التوقُّعات بين التفاؤل والتشاؤم، وأطلقنا على الجماعة في أحاديثنا اسم «الزفة الميري». وقبل أن يفتر الحديث عنا أخبرنا شيخ الحارة أن وزارة الأوقاف قرَّرت تجديد السبيل وإعادة تشغيله، وفسَّرنا ذلك بأنه أول ثمرة لزيارة الزفة الميري. وسرعان ما جاء العُمَّال والمهندس ومندوب الوزارة وبدأ العمل، وارتفعت موجة التفاؤل، قلنا: إنه ليس من المعقول أن تزورنا زفة طويلة عريضة من أجل تحديد السبيل وحده، وسوف تكشف الأيام عن أعمال أجل. وإذا بشيخ الحارة يبشِّرنا بأن الحكومة ستقيم سقفًا جديدًا للكُتَّاب، مكان السقف الذي أودت به العاصفة في الشتاء الأسبق. وقلنا: يا لها من زفة ميري مباركة! وإن زمن الخيرات هلَّ مُلوِّحًا بألويته، وبنفس الهمة رُمِّم حوض مياه الدواب. كما قيل إن مفاوضات تجري لتحويل بيت إلى مستوصف. عظيم، عظيم، أيتها الزفة. حقًّا لقد فقدَت الحارة هدوءها؛ فعمَّها الضجيج، وكثرت المشاجرات، وامتلأت الأركان بالنفايات، وجاء أهل المزاج فأعدوا تحت القبو غرزة، وبوظة للعُمَّال والشباب. وتسلَّلت إليها رموز الدعارة وفاحت الرائحة، فانزعج الناس ودعَوا شيخ الحارة لتطهير الحارة ممَّا دهمها على غير توقُّع، وبسبب ما، لم ينجح الشيخ في مُهمَّته وقال كالمعتذر: الضرورات تبيح المحظورات.

وقال إمام الزاوية: الخير والشر متلازمان كالنهار والليل، ولا خوف على مؤمن.

وانتشر قول بلا أي دليل؛ وهو أن أحد أعضاء الزفة وراء مجمع الفساد تحت القبو.

وثارت اتهامات كثيرة، وأرجعوا كل شيء إلى الزفة الميري، وغشي الحزن القلوب.

واشتد الشتاء وقسا أكثر من أي عام مضى، وتهكَّم كثيرون فقالوا: إنه شتاء الزفة الميري، وإنه يجب أن يحمل طابعها المشئوم. وتوارت الشمس وراء ركام السحب،

وهبَّ هواء مزمجر فعصف بكل شيء؛ فانقلبت عربة اليد وطار ما عليها من الفاكهة والخَضروات، وانهمرت الأمطار كالفيضان، واستمرَّت بلا هوادة؛ فأغلقت الدكاكين وهرب الناس من بيوتهم، وانفضت تلك الغضبة الكونية ففتكت بما فوق الأسطح من طير وحيوان وكراكيب، وانهار السبيل، وتهدَّم كشك الحنفية، وسقط سقف الكتَّاب، وصاح إمام الزاوية من وراء بابها المغلق: «قامت القيامة ولله الأمر!»

ويقول الرواة: إن العاصفة والأمطار استمرَّت النهار والليل، ولم تسكن ثورة الكون، إلا صباح اليوم التالي.

وراح شيخ الحارة يتفقَّد الأحوال متوقِّعًا في كل خطوة شيئًا، وعندما اطلع على الممر المفضي إلى المقابر وجده غارقًا في الماء، ورأى فوق سطحه بعض الجثث والهياكل العظمية تنحدر بها المياه نحو الحارة.

ورجع الرجل وهو يصرخ بأعلى صوته: كفاكم حديثًا عن الحظ والقدر والزفة الميري، وهبُّوا إلى العمل، وإلا اجتاحت الأموات بيوتكم!

ليلة الزفاف

طلعت الأردوازي من الأوائل السابقين إلى ارتداء بدلة الأفندية في عمارتنا. وليلة زفافه تُذكر في الليالي بفضل المنيلاوي الذي أحياها حتى مطلع الفجر.

وجاءوه برجل مبارك ليقرأ طالعه، فنظر في مفرق شعره وتابع خطوط كفِّه وقال: «من يد واحدة يسيل العسل والسم.»

واكتأب العريس ممَّا سمع، فطالبه بالمزيد من الإيضاح، ولكن الرجل لم ينبس. ونظر العريس في وجوه الحاضرين وسأل: ما رأيكم في نبوءات قرَّاء الطالع؟

فقال صاحب حكيم: كذب المنجِّمون ولو صدقوا.

وأسلم الشاب جسده إلى موجة الفرح العالية فغمرته، وغسلت ما علق به من كدر وشك.

ولمَّا تجلَّت نظرة الكراهية السامة بعد ذلك بأعوام طوال، ثم وقعت الواقعة، تذكَّر أناس من جديد نبوءة قارئ الطالع. وثار العجب مرةً أخرى، وأقبلت الحيرة، لكن ما وقع كان قد وقع.

السعادة

– لماذا قتلته؟

– لم أقصد قتله، ضربته بعصاي على رأسه.

– كانت الضربة شديدةً فقتلته.

– قتله أجله.

– ولكن بضربة عصاك الشديدة، والغريب أن الشهود أجمعوا على أنه لم يقع بينكما ما يدعو إلى أي خصام.

– لم يقع بيننا شيء، كنا نجلس بركننا المختار في المقهى لنتسامر كالعادة.

– وفجأةً ضربته بلا سبب.

– ذلك في الظاهر، أمَّا الحقيقة فهي أنني ضربته احتجاجًا على سعادته.

– سعادته؟!

– لم أنسَ بعدُ وجهه المستدير الممتلئ، وعينَيه الباسمتَين، وصحته الصارخة، والسرور الدائم الذي يطفِر من خدَّيه المتورِّدَين.

وعضَّ على شفته لحظة، ثم واصل حديثه: لم يرَ في الدنيا إلا ما يسر، ولا يكف عن الضحك، ويحوِّل بمهارة واستهانة المآسي إلى مهازل، حتى مأساة الموظَّف المسكين الذي قفز من النافذة هربًا من مصروف البيت.

وسكت لحظةً أخرى، ثم قال: طالما استفزَّتني سعادته فكان لا بد أن أُسوِّي حسابي معها.

نذير من بعيد

و«حسبو» الذي أنذرنا بخطر لم يقَع لنا في حسبان. كان يبيع الروائح العطرية برزق محدود، أمَّا ثروته من قلوب الناس فلا حدود لها. وأبرز سجاياه كانت الصدق والوفاء. وعُرف أنه في أوقات فراغه يداعب الغناء، ويعشق السَّمر، ولا تحلو له الجوزة إلا فيما وراء المقابر.

وعاد يومًا من سهرته صباحًا شاحب الوجه شارد اللُّب، وفي وسط الأصدقاء بالمقهى حكى كيف نُودي وهو راجع في الظلام، وكيف وجد نفسه بين أشباح غاضبة، عرف في سياق حديثها أنها هياكل أموات أهل الحارة السابقين، وأنهم لا يوافقون على ما يرتكب في حارتهم من فِعال منكرة، وطالبوه بأن يكون نذيرهم إلى أهل حارته بأنه إذا لم ترشُد أمورهم وتستقم؛ فسوف تزحف عليهم جيوش الهياكل العظمية؛ لتطهِّر الحارة من الانحراف والمنحرفين.

وضحك البعض، وانخرط البعض في المزاح، غير أنهم وجموا حيال حزنه الشديد ونظراته الدامعة المنكسرة.

– أأنت جادٌّ يا حسبو؟!

– ما عرفناك كاذبًا قط.

– لكن ما تقول هو المستحيل بعينه.

فقال بصوت متهدِّج: جلَّت قدرته، يقول للشيء كن فيكون.

ومن عجب أن بقي أثر من حديث حسبو في نفوس كثيرة. ردَّد قوم ما يقال عن سنن الله التي لا تبديل لها، وانحاز آخرون إلى مقولة قدرته التي لا تعرف الحدود، وخاض في ذلك العقلاء والعامة والسفهاء أيضًا، حتى كادت تنشب فتنة، واضطُر شيخ الحارة

أن يتدخَّل، فصاح فيهم يوم السوق: ما لكم ولهذه المسائل العويصة؟! هل فرغتم من همومكم اليومية؟!

واستعان بإمام الزاوية ولكن الجدل تواصل واستفحل، وتبودلت شتائم وحصل اشتباك بالأيدي.

وفي أثناء ذلك كانوا يُشيرون إلى نذير الأموات وكأنه حقيقة لا شك فيها. ودون أن يقلِّل ذلك من الانحرافات التي تُرتكب كل يوم وكأنه لا علاقة بين الاثنَين.

أمَّا حسبو فقد انسحب من حياة حارته، وانجذب بكل قواه نحو عالم الغيب، وتقطَّعت العلائق بينه وبين الناس والأشياء، فانتهى إلى الجلباب الأبيض والعِمامة الخضراء والكلمات المبهمة. وكان يقضي أكثر وقته عند طرف القبور متطلِّعًا إلى الخلاء منتظرًا ما يجيء به الوقت.

الأرض

في ساعة هدوء وخمول وطمأنينة انفجر الرعب من الأعماق، واجتاح القلوب وغدر بالآمال، فلم يبقَ إلا المجهول. ومادت الأرض ورقصت رقصة الموت، فدعا كل لسان بريق جافٍّ أن ينتهي ذلك الزلزال.

وانتهى الزلزال بعد ثلاثين ثانيةً من الزمن، وألف عام من العذاب. وتطلَّع شيخ الحارة فيمن حوله فرأى الحارة تموج بأهلها من النساء والرجال والصغار، ومسحة الرعب لم تنحسر عن وجوههم بعد. واختلطت الأصوات أيما اختلاط؛ ضحكٌ وبكاءٌ وصراخ. الكل يتكلَّم ولا أحد يسمع. أمَّا الغبار فلم تنقشع سحبه بعد. ومسح شيخ الحارة عينَيه بمنديله الكبير المقلَّم وصاح: وحِّدوا الله! في يومنا هذا يمتحن الله عباده.

واستبَقت إليه الأصوات من كل جانب: أهلي تحت الأنقاض. إليَّ برجال الإنقاذ.

– لديَّ جرحى ونريد الإسعاف.

– جثث، هذه جثث ويجب أن تُدفن.

– أصبحنا ولا مأوى لنا,

فصاح شيخ الحارة: أبلغت السلطة وطلبت اللازم. لا بد من الصبر لأن الطلبات كثيرة. تعاونوا ما أمكنكم، وليكن اعتمادكم على الله وعلى أنفسكم حتى يجيء الفرج.

وقامت ضجة عند الزاوية المطلة على الميدان. وصوت صرخ: فضيحة يا شيخ الحارة!

وشيخ الحارة ذهب صوب الصوت فوجد نفسه أمام عمارة الزنفلي التي سقط نصفها الأمامي تاركًا نصفها الداخلي أمام الناظرين. وفي الدور الثالث لم تستطِع ست سوسن أن تجد مكانًا تُخفي فيه جسدها العاري، وبالتالي لم تستطِع أن تُخفي الرجل العاري معها الذي عرض ظهره للأعين ودفن وجهه في الجدار، رغم ذلك عرفوه، وأكثر من صوت هتف: المعلم طلبة.

– أهلك قادمون ليشهدوا بأعينهم فضيحتك.

– الزلزال عقاب وعبرة.

وتساءل شيخ الحارة مغيظًا محنقًا: أكانت تنقصني هذه الجريمة في هذا اليوم الأغبر؟!

وإذا بإمام الزاوية يحمل طفلةً باكيةً في السادسة أو دون ذلك، فقال لشيخ الحارة: المسكينة فقدت أسرتها وعلينا أن نجد من يتبنَّاها، وتنهَّد شيخ الحارة وغمغم: في غمضة عين ليس إلا. سبحان الله العظيم.

أم الذهب

ضَبط شيخ الحارة بنفسه يونس القفا وهو يُغوي رجلًا حال خروجه من الزاوية لقضاء سهرة هوى. وقال له شيخ الحارة غاضبًا: جريمتك مضاعفة؛ فأنت تقود إلى الفساد، ولا تكتفي بذلك، بل تختار ضحاياك من أهل الصلاة والتقوى. فقال الرجل بخوف وقهر: فعلتُ ما أُمرت به.

– أجِبني فورًا عند من تشتغل؟

– عند ست ربيبة المشهورة بأم الذهب.

كان بيتها خارج القبو عند حافة القرافة. وكانت جميلةً وافية المعالم، ولأنها تُرى في الطريق بوجه، وفي البيت بوجه، وفي النهار بوجه، وفي الليل بوجه، فلم يستطِع أحد الجزم بعمرها.

وراقب شيخ الحارة بيتها حتى كبسه في الوقت المناسب. سقطت المرأة بعد حمل سري طويل. وقال شيخ الحارة لأم الذهب: إني أفهم كل صغيرة وكبيرة في عملك، ولكن يُحيِّرني أمر واحد، كيف وجَّهتِ خادمك أخيرًا لاصطياد المتردِّدين على الزاوية؟

فقالت المرأة بجدية: عانيت من الآخرين القهر والنهب والعربدة، فقلت أُجرِّب الناس الطيبين.

ولم يتمالك شيخ الحارة نفسه من الضحك، ولكن المرأة لم تضحك.

تحت العِمامة عريس

عائلة الشيخ توكل هي أعجب عائلة في حارتنا؛ بها قارئ قرآن ضرير مجدور الوجه، يلفت الأنظار بقصر قامته وضخامة رأسه. وربَّتها سيدة أقرب إلى البدانة، تُسيء للناظرين بتشوُّه قَسَماتها؛ فهي تحجب وجهها حتى في بيتها. أمَّا الذرية فتتكوَّن من شابَّين وسيمَين وبنت كالقمر في تمامه، تسحر اللب والخاطر. وكل من يرى الأسرة لأول مرة يتساءل كيف حدث هذا؟ كيف تنبثق الأزهار من غياهب البوص؟!

يقول الرواة إن منيرة كانت حديث الحارة وفتنتها. الأب كان حلوانيًّا بسيطًا من سكان الرَّبْع، وكان يقول: «جمال منيرة لا مثيل له فلنسأل الله السلامة.» ولكن الكثيرين تنبئوا بالمتاعب، وكل واحد تكلَّم، وكان الشيخ توكل من السامعين، وكان له رأيه أيضًا فقال يومًا: هذه مسألة لا يحلها إلا شيخ الحارة.

فقال له أحد الجالسين في المقهى: إنه امتحان خلقه الخالق يمتحن به عباده.

كانوا يتحدَّثون عن جمالها وحلو أوصافها وسعادة من يفوز بها. ويشتد النقاش ويحتدم ويُنذر بالخطر، أمَّا معانيه وأخيلته فتستقر في قلب الشيخ توكل فيتذوَّقها في هدوء رجل قُضي عليه بأن يبقى خارج حلبة السباق. ومن كثرة ما سمع خاطب نفسه متأثِّرًا قائلًا: «لا عزاء يا توكل، ما أنت إلا عاشق صامت.» وراح يتلو في سرِّه سورة يوسف.

وكان يختم تلاوته بالزاوية عندما سمع شيخ الحارة يقول للإمام: أكان ينقصني الغرام لأحمله مع بقية الواجبات؟

فقال له الإمام: استدعِ عم حسنين أباها وشجِّعه على أن يزوِّجها في الحال.

– المشكلة أن جميع شباب الحارة لها خاطبون!

فصاح الإمام غاضبًا: لا يصح أن يزعزع لعب العيال أمن الحارة!

وخاطب الشيخ توكل نفسه قائلًا: «ما أنت إلا عاشق مهجور مُلقًى في الخارج.» وفي تلك اللحظة من الزمان الحزين أُلقي ماء النار على الوجه الجميل في العتمة وصاحبته خارجة من بيت أبيها ذاهبة إلى بيت الجيران.

وخفق للمأساة كل قلب، وانصبَّت اللعنات على الجاني المجهول الجبان.

وغاب وجه القمر تحت غيم لا يريم ولا ينقشع، ولكنه ظلَّ هو هو بكل بهائه في قلب الشيخ توكل، وغمغم مسحورًا: «هكذا تجيء الملائكة بالمعجزات.» وقبل أن يتمادى الحزن في بيت عم حسنين ويفعل فعله، ذهب إليه الشيخ توكل مهتديًا بعصًا، وضغط على يده بحنان وقال: جئتك يا عم حسنين طالبًا القرب.

القلوب الطائرة

اعتلى منبرَ الزاوية رجل غريب، وقبل أن ينال موافقة الإمام على إلقائه الخطبة هتف بصوت جهير: «أيها الناس! بسم الله الرحمن الرحيم.»

وانطلق يهدر بخطبة لم يسمع الناس مثلها من قبل، لا لأنها أبلغ الخطب، ولا لأنها أحكم الخطب، ولكنها كانت أعظم الخطب إثارةً وتهييجًا. وصمت المصلُّون ليتطلَّعوا صامتين، وملئوا قلوبهم بكلماته النارية — أو قل إنها امتلأت تلقائيًّا وبغير إرادة — وذُهل الإمام مع الذاهلين وهمس لنفسه: «أتوقَّع عواقب لم تكن في الحسبان.» ولم يتنبَّه شيخ الحارة لخطورة الحدث إلا حين ترامت إليه تعليقات الناس، فلمَّا أرسل بصره نحو المنبر ليرى الرجل الذي هيَّج تلك الزوبعة، لم يجد له أثرًا.

وسأل شيخ الحارة الإمام: أتعرف الرجل؟

– أبدًا.

– كيف سمحتَ له بالخطابة.

– كما يتفق لبعض الناس فلم أتوقَّع ما كان يخفى.

– وأين ذهب؟

– اختفى كأن الأرض ابتلعته.

على أن الحارة لم تعرف الراحة منذ خاطبها ذلك الصوت. تحمَّس له أناس، واتهمه كثيرون، وثار الجدل، وانقلب في أحيان كثيرة إلى مشاجرات وسالت فيها الدماء، كل ذلك دون أن يظهر للرجل أثر. ولم يشهد واحد ممن سمعوه أو رأوه أنه من أهل الحارة، أو سبق أن رُئي في ربوعها أو مقهاها، حتى قالت امرأة هالها الشجار والدم: إنه عفريت جاء ليعبث بنا ثم رجع إلى مخبئه.

وحاول الإمام أن يدعو الناس للكف عن الجدل والخناق، وحاول شيخ الحارة، ولكن الجدل كان يزداد والخناق يتضاعف.

وكثرت الأقاويل بلا دليل، قائل يقول: كنت راجعًا إلى بيتي عند منتصف الليل حين ظهر لي وقال لي ... وآخر يقول ... وهكذا، حتى دخلت الأقاويل في الأساطير والخرافات، وازداد الأمر شدة، وارتعب الإمام إذ تصوَّر نفسه يُسأل في وزارة الأوقاف.

وارتعب شيخ الحارة إذ خاف يوم يُسأل في الداخلية. ولم يبقَ من الواقعة الأصلية إلا صورة باهتة تُروى عادةً في صور مختلفة، كذلك مُحيت الخطبة المثيرة أو كادت، ولكن الخصام استمرَّ واشتدَّ وأنذر بعواقب لا تسرُّ أحدًا.

ولم تخفَّ حيرة الحائرين إلا حين وقف أحد المجاذيب على سلَّم السبيل في يوم السوق، وقال من خلال ريقه السائل: سيجيء الفرج بلا دليل، كما جاء الهرج بلا نذير.

زغرودة

دقَّت طبول الزفاف وطارت زغرودة إلى السماء. قال زهران بأسًى: إنه زفاف ياسمين ومهران. ونظر إلى صديقه مهران بين الورود والأصحاب، وقال بدهشة: وها هو العريس يتبختر والحظ يبتسم والدنيا حظوظ.

وقالت له أم إسماعيل: لا تحزن على ما فاتك، الغيب مليء بالحِسان.

ولكن هذه المرأة لا تعرف كل شيء، لا تعرف أنني ومهران بدأنا العمل في يوم واحد بوكالة القللي، وأحببنا ياسمين حب الجار للجارة في عام واحد، وراح هو يدَّخر الفائض من مرتبه، أمَّا أنا فظننت أن أي ادخار لن يكفي ثمنًا لمهرها؛ فرُحت ألهو وأقتني دواوين العشاق، حتى انتبهت ذات يوم على خبر يجري ما بين القبو والميدان، معلنًا خطبة ياسمين ومهران.

– يا أم إسماعيل، خسرتها لأنني عرفت قيمتها الحقيقية.

فضحكت المرأة لتُهوِّن عليه وقالت: أو لأنك لم تعرف قيمتها، وسوف آتيك بأحسن منها.

الشحاذة

وكعادتها سألت نفسها: ما الحل يا أمونة؟

وجالت في عوالم خبرتها المحدودة، ثم قرَّرت أن تعمل شحاذة. ولم تُخفِ قرارها عن ابنتها الوحيدة. وفزعت الشابة ولكنها لم تجد ما تقوله؛ فالمشكلة هي مشكلة أطفالها الأربعة الذين مات أبوهم قبل الأوان، تاركًا الزوجة والأبناء للضياع. وقالت الزوجة بأسًى شديد: «كان أبوهم مُوظَّفًا، وكان يرجو أن يسير أبناؤه في طريقه، لا كما يسير أبناء الشوارع.» فقالت أمونة الجدة بإصرار لا يناسب عمرها المتقدِّم: «سيسير الأولاد في الطريق المرجو.» واتخذت قرارها.

وكلما جاء الليل التفَّت في جلباب أسود ومضت إلى الأطراف البعيدة من الحي، تُسدل النقاب على وجهها النحيل الجاف وتمد يدها.

وخطب تاجر ميسور الأرملة الشابة فشجَّعتها أمها على الموافقة قائلة: «ما زلتِ شابةً ولا بد لك من رجل.» وذهبت الأم مع زوجها وبقيت الجدة ترعى وتربِّي وتشحذ فتجمع رزقًا وفيرًا.

لكن الوقائع لا تتوافق دائمًا مع الرغائب؛ انكشف السر في أحد الموالد وحمله غواة الأذى إلى كل مكان، وتداوله ناس كفضيحةٍ ما بعدها فضيحة، وعبث به آخرون فجرى مجرى المزاح والمجون.

ولم يحتمل بيت أم الأولاد الخبر، فسرعان ما طلقها زوجها، فرجعت إلى أمها مقهورةً باكيةً حتى صاحت بها أمها: «لا حيلة لكِ إلا البكاء، وهل فعلتُ ما فعلتُ إلا دفاعًا عن أولادك؟!»

وجالت العجوز في عوالم خبرتها المحدودة، ثم قرَّرت الهجرة إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد لتكمل فيه رسالتها.

القانون

غادر حافظ السيد السجن بعد تأبيدة التهمت من عمره ربع قرن بلغت به الخامسة والأربعين. رجع إلى الحارة بقلب ملؤه الشوق والحذر، ولكنه لم يكن يعرف أحدًا ولم يعرفه أحد. وجد الحارة مشغولةً بالبيع والشراء والضحك والحزن والصخب، وبدت ناسيةً تمامًا لعهد البطولة والأبطال. تُرى هل ضاعت التضحية هباءً؟ وها هي عينه الحائرة تستقر على لافتة في أعلى وكالة كبيرة سُجِّل عليها «الرمامي وأولاده». وراح يتذكَّر القدر، وهو يلعب بالبطولة والخيانة، ويوزِّع الأبطال والخونة ما بين السجون والمتاجر.

ودعاه شيخ الحارة إلى مقابلته في دكَّانه فمضى إليه.

دعاه للجلوس وقال: أهلًا بك في حارتك مرةً أخرى.

فغمغم الرجل بشكر الله، فقال شيخ الحارة: يجب أن تعمل. في السوق متَّسع وأنت متعلم.

– تلزمني فترة قصيرة للراحة والتفكير.

فقال الشيخ بقوة: احذر الفراغ فإنه رفيق سوء.

– فترة قصيرة فقط.

فقطَّب شيخ الحارة متسائلًا: أترغب في الحياة حقًّا أو رجع الشيطان يساومك؟

فقال بعجلة: انتهى الماضي بخيره وشره، بأبطاله وخونته!

فقال شيخ الحارة بحدَّة: لا تعد إلى تلك الأوصاف، ولا تذكر ثانيةً الأبطال والخونة. الأمور نسبية، ولا تنسَ أنني صوت القانون ويده في هذه الحارة.

فأشار حافظ السيد إلى الوكالة وقال: هذه الوكالة فُتحت بالمال المدفوع ثمنًا لخيانتنا، فكانت الوكالة في ناحية، والسجن والمشنقة في الناحية الأخرى، وأنت رجل على أي حال من أبناء حارتنا، فهل ترضيك هذه القسمة؟

فقال شيخ الحارة بحزم: يرضيني ما أجد القانون عنه راضيًا، وطبعًا أنت تعرف أنك مراقب، وأنا لا أحب أن أراك في الحديد مرةً أخرى، وحسبك ما ضاع من عمرك.

ومدَّ له يده قائلًا: اذهب بسلام.


هنداوي